كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

مذكرات الأميرة جويدان

زوجة الخديوى عباس الثانى



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٦ - رمضان ١٤٠٠ - اغسطس ١٩٨٠

No. 356 — August 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقي بلاد العالم بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــة
الفنانة سميحة حسنين

مذكرات الأميرة جويدان
زوجة الخديوى عباس الثانى

●

بقلم
الأميرة جويدان

●

دار الهلال



حكاية عائلة جويدان

حكم المماليك مصر لفترة طويلة ، والمماليك هم طائفة من الناس اشتراهم الخلفاء العثمانيون ودربوا من كان منهم صالحا للعسكرية ليكون ضابطا او جنديا فى جيش الخليفة ، واصبح المماليك اكبر قوة فى تلك الامبراطورية التركية وحكموا البلاد الخاضعة لهم بواسطتهم .

واستقل المماليك بحكم مصر ، ولم يكن الخليفة العثمانى أو الباب العالى كما كانوا يسمونه ، يهتم بمن هو الحاكم او المحكوم ، فان كل ما يهمه هو الايرادات والأموال ، فالمملوك الذى يحكم مصر أيا كان اسمه عليه أن يورد الى الخزانة التركية الجزية أو الضرائب المطلوبة من البلد بالتمام والكمال ، ولا يهم كيف جمع المملوك الأموال من الناس ، ولا المبالغ التى جمعت منهم ، فالمهم الا يقل المبلغ المدفوع عن الحصة التى حددت .

وطبعا فان هؤلاء الحكام كانوا يجمعون أقصي ما يمكنهم من أموال الشعب ، ويدفعون الضريبة ويستبقون ما حصلوه من زيادة لأنفسهم .

وكان تحت يد المملوك الحاكم ، حكاما أو مماليك آخرين يحصلون من الناس ، وهم أيضا يحصلون بالزيادة ويستبقون الزيادة لانفسهم كأجر لهم .

وكان المصرى هو الضحية الذى عليه أن يدفع ويدفع ولا يأخذ .

وهكذا اصبحت عند المصريين عادة لا زالت سـائدة حتى اليوم عند البعض منا وهى عادة اخفاء النعمة خوفا من العين ، عين الحاكم ، وأعوانه من الجباه والملتزمين بتوريد المال والذين يجمعون لحسابهم ولحساب رؤسائهم ولحساب الحكام ولحساب الخليفة .

وفى نهاية هذه الفترة ظهر نابليون فى أوروبا ، وقاد الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ وحارب المماليك وانتصر عليهم فى معركة امبابة .

واستسلمت فلول المماليك عند بوابة امبابة التى بنى مكانها الآن مسجد خالد بن الوليد وسمى الشارع الذى وقعت فيه معاهدة الصلح افينو دى باى ، وترجم الاسم فيما بعد الى شارع السلام ، ولا زال الشارع موجودا حتى اليوم .

ونتيجة لحملة نابليون ، التى أدعت انها قادمة لتطبيق مبادىء الثورة الفرنسية وهى الحرية والاخاء والمساواة ، ان ظهرت امام الشعب المصرى والمصريين مفاهيم جديدة وافكار حديثة .

ثم زالت الحملة النابوليونية عن مصر سنة ١٨٠١ ، كما زالت غيرها من الحملات . وعاد المماليك محاولين ان يستردوا حكمهم ومجدهم وهيلمانهم .

ولكن المصريين كانوا قد أدركوا ان حكم المماليك ليس هو أبدع ما يكون ، وان الناس لهـا حقوق وعليها واجبات ، وليس المملوك الحاكم وحده هو صاحب كل الحقوق ، والفرد المصرى وحـده هو حامل العبء والضغط .

وفى عام ١٨٠٥ ظهر جندى مرتزق من جنود الجيش العثمانى قدم من بلدة قولة فى البانيا يقود فرقة البانية كان الخليفة قد أرسلها الى مصر لمقاتلة الفرنسيين ؛ فاحتلت لنفسها مواقع فى الجيزة وامبابة .

هذا الرجل هو محمد على باشا الذى استطاع أن يحكم البلد منتهزا فرصة الفوضى التى دبت فى البلاد وفرصة الشجار بين المماليك على تقسيم الغنيمة ومستخدما عقله فى الايقاع بينهم وبين بعض ، وفرصة تأخر دفع المرتبات لمدة ستة أشهر ماضية ، وفرض البرديسى لضرائب جديدة لدفع المرتبات مما أثار سخط أهل القاهرة ، منتهزا كل هذه الفرص فحارب البرديسى وباقى المماليك وانتصر عليهم .

وقبض محمد على ، على زمام مصر .

واستطاع أن يقنع المماليك بترك الحرب والاقامة فى القاهرة حتى يكونوا تحت اشرافه ويأمن شرهم بعد أن آمنهم على أنفسهم .

لعبة القلعة :

ولكن هل آمن محمد على على المماليك حقا ؟

الحقيقة انه أعد لهم مصيرا عجيبا للتخلص منهم ببشاعة .

فقد دعا الى حفلة رائعة أعدت بمناسبة منح ابنه الأصغر الأمير طوسون لقب الباشوية من السلطان تأكيدا لرضاه عن محمد على وحكمه الذى دفع الجزية من المال

والرجال ، والمال معروف ، أما الرجال فهم هؤلاء الأفراد المصريين الذين جندهم لحرب الوهابيين فى الجـــزيرة العربية لخروجهم على طاعة السلطان .

وأرسل السلطان التركى رئيس الخصيان بقصره الى مصر ليسلم طوسون براءة الباشوية وهدية من السلطان عبارة عن خنجر وسيف مرصعين .

ودعى محمد على أكابر القطر وأعيـــانه والعساكر لحضور تشريفات البراءة ، وتقرر الباس الباشا الجديد ملابس اللقب يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ ، وكان ضمن من دعى لشهود الاحتفال ، مماليك مصر .. ولبس كل منهم أفخر ما عنده من ثياب وركب أحسن ما يملك من خيل ، وتقلد المع ما عنده من سلاح .

وفى الساعة الثانية صعد المدعوون جميعا الى القلعة ، وكان الوالى يستقبل المماليك البكوات بمظاهر التعظيم والتكريم ، ويلاطفهم ، ويحادثهم فترة من الزمن يشربون فيها القهوة ثم ينصرفون من حضرته ، ويضرب النفير ايذانا بانصرافهم للانضمام للموكب .

كان ترتيب الموكب كالتالى :

فى المقدمة فرقة الأدلة بقيادة شخص يدعى أوزون على ، ثم الوالى ، ثم أغا (الرئيس) الانكشـــارية ، والمحتسب (وزير المالية) وخلفه عدد من الكبراء حسب ترتيبهم ، ثم الألبانيون بقيادة شخص يدعى صالح فوج وبعدهم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب . وخلفهم المشاة والفرسان وأرباب المناصب .

وسار الموكب جهة ميـــــدان الرميلة فى طريق معوج منحوت فى الصخر حتى باب يسمى باب العزب اجتازه

مقدمة الموكب ، وعندئذ أمر صالح فوج قائد الألبان باغلاق الباب الحديدى الكبير ، ثم أعطى أوامره لعساكره فتسلق الألبان على جانبى الطريق ، واخذوا مراكزهم لاطلاق النار .. وتحصنت المؤخرة ايضا .

ووصل المماليك الى الباب فوجدوه مغلقا ، وارادوا التقهقر ليصلوا الى الرحبة الوسطى من القلعة فلم يتمكنوا لان الخيول كانت تسير فى نظام خلف بعضها والمر ضيق حتى انها تحتك بجوانبه الصخرية .

وفتحت النار عليهم من الخلف والامام ، ومن أعلى ، وأسقط فى أيدى المماليك ، وارتبكوا ، وسالت الدماء ، ونزع بعضهم ما كان عليه من فراء وثياب ثقيلة وترجلوا عن خيولهم ، وشهروا سيوفهم ، وقد تملكهم جنون الحنق والغيظ ، ثم اليأس فلم يكن أمامهم خصوم يحاربونهم ، بل رصاص يهطل عليهم من اعلى الأسوار التى تحف بالطريق ، ومن النوافذ القريبة ، ومن الخلف ، وسقط شاهين بك الذى كان ضمن مقدمة موكب المماليك صريعا ، وقطعت راسه ، واخذها من قطعها واسرع بها الى الباشا ليأخذ البقشيش ، واستطاع سليمان بك البواب أن يصل الى باب الحريم وصرخ :

ـ انا فى عرض الحريم .

والعادة فى ذلك الوقت ان من استنجد بالحريم ينجد، ولكن من الذى ينجده !

ووصل حوالى ثمانية من المماليك فى فرارهم الى مكان كان يقف طوسون باشا وسأله النجدة ، ولكنه لم يلن لاستنجادهم .

وصارت القلعة فى ذلك اليوم ميدانا للقتل والذبح ،

وقعطت رءوس المماليك ليراها الباشا ، وسحبت أجسادهم بالحبال ، ولم يرحم أحد فى هذه المذبحة حتى الخدم وأولاد أهالى البلد وغيرهم ممن تزينوا بأحسن زينة ورافقوا مواكب المماليك بنوع من التفاخر .

ولم ينج من المذبحة غير مملوك واحد هو امين بك الذى كان قد تأخر لظرف طارىء فلم يحلق غير الصف الأخير ، فلما سمع صرير الباب الحديدى وهو يغلق ، ودوى الرصاص رجع بجواده الى داخل القلعة ، واخذ يبحث عن منفذ للهرب فلم يجد أمامه الا أسوارا ارتفاعها عشرون مترا فجرى بجواده الى قمة عالية ثم استفز الحصان فوثب به فى الهاوية التى تحت قدميه فتهشم الجواد ، واصاب الرجل اغماء بسيط أفاق منه بسرعة وجرى من هناك حتى وصل الى اقليم الشرقية ومن هناك استطاع الهرب الى مدينة عكا .

رواية اسكندر ديماس :

وقد اثرت هذه المذبحة فى الكاتب الفرنسى الشهير الذى عرف بكتابة قصص الفروسية ، اسكندر ديماس الأب فألف كتابا سماه خمسة عشر يوما فى سيناء وصف فيه مذبحة المماليك ، وان غير فى بعض الوقائع ، اذ ذكر ان خمسة عشر مملوكا قفزوا من حالق فماتوا هم ودوابهم الا اثنان منهما نهضا من سقطتهما وهربا ، ثم وصف هروبهما الطويل والخمسة عشر يوما التى قضياها فى اجتياز صحراء سيناء .

ومهما يكن فان محمد على تخلص من المماليك نهائيا فقد بلغ عدد قادة المماليك الذين قتلوا فى مذبحة القلعة

اربعمائة وسبعون مملوكا ، وكان محمـــد علي جالسا يرقب المذبحة ويدخن النارجيلة « الشيشة » في مكان لا يراه فيه أحد ويرى منه هو كل شيء .

وبعد المذبحة خرجت جنـوده الى المدينة والى بيوت المماليك تنهب وتسلب وتقتل رجالهم وصبيانهم وتهتك أعراض نسائهم وتسلب حليهن ، ويقـال ان امرأة احد المماليك كان بيديها أساور كثيرة فقطع الجندي التركي يديها بسيفه ليستخرج الأساور بسهولة .

زيادة الخير :

وانتهى المماليك واستتب الأمر في مصر لمحمد علي ودفع للباب العالي اي للسلطان من الأموال ما جعل محمد علي يستحق لقب الباشوية وان يتقرر حكم مصر له ولأسرته من بعده بالوراثة .. وكل شيء بثمنه .

ومحمد علي ، وجدها لقمة سائغة سهلة ، فتحت يده بلد كبير مليء بالخير والنـــاس والأموال فلا مانع من توسيع رقعة الأرض المملوكة ، وحارب محمـــد علي بالمصريين في كل مكان استطاع أن يحارب فيه .. في السودان ، في الحجاز ، في المورة باليونان ، وهي الحرب التي غرق فيها الأسطول المصري .

والمهم ان حياة وحكم محمـــد علي قضيا في حروب انتهت باستنزاف موارد المصري المسكين حتى مات سنة ١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول .

وانكمشت البلاد ، واصابها الفقر .

الشيفاليه :

ثم جاء اسماعيل باشا الى الحكم خلفا لعمه سعيد باشا سنة ١٨٦٣ ، واسماعيل تربى فى القصور ، وتربية القصور الناعمة غير تربية جندى مرتزق كجده ، فالجندى المرتزق رجل ضاقت به اسباب الرزق كما حدث لمحمد على بعد أن أفلس محل الدخان الذى كان يملكه فى بلدة قولة فلم يجد عملا يتعيش منه ولم يكن لديه شيئا يملكه غير شبابه فانضم الى الجيش .. اى جيش ، يعمل فيه ، فهو لم يحمل السلاح بنوع من الوطنية أو المبادىء ، انما هو عمل من الأعمال .

ولكن اسماعيل تربى فى القصور فهو ابن ابراهيم الابن الأكبر لمحمد على وقائد جيوشه الذى مات تاركا الولد لجده يدلله وينعمه ، واصبح اسماعيل بطبعه يبحث عن الترفيه والترف ، واعتقد فى نفسه انه شيفاليه ، اى فارس من فرسان العصور الوسطى وهؤلاء الفرسان ليسوا فرسان حرب ، بل فرسان استعراضات على الواحد منهم ان يحب امرأة ذات أهمية خاصة ، يتفانى فى حبها ، ويضحى فى سبيلها بالغالى والرخيص .

وهذه المراة كما يقول الكاتب هارولد نيكلسون فى كتابه « التصرف السليم » .

« تقضى تقاليد الفروسية ان لا تكون زوجة الرجل ، او احدى جواريه الخاضعات له ، فالزوجة لها وضع خاص فى رئاسة البيت وانجاب الخلف الصالح الذى سيرث عرش الفارس ، والجاريات وغيرهن نزوات عابرة تنفعن فى ساعات وأوقات اللهو والمرح :

ولكن تلك المراة يجب أن تكون شيئا ممتازا لهـــا اعتبارها ووضعها ، وان تكون بعيدة المنال على الفارس لا يستطيع اخضاعها لسلطانه او التحكم فى مصيرها ، وتكون هى من جانبها قادرة على الصد وعلى المنح حسب هواها .. وعلى فارسها أن يقدم ما عنده من عطايا وان يجثو عند قدميها ، ولا مانع من انزال الدمع امامهـا فتمسحه له بمنديلها الخالد الذى يعد وقوعه فى يده دليلا على رضـــاها عنه واستسلامها له حتى ان ياجو الخائن سرق منديل ديدمونة وسلمه لزوجهـــا عطيل فقتلها معتقدا خيانتها له فى مسرحية شكسبير الشهيرة .

وهكذا بالنسبة لاسماعيل فان صاحبة المنديل كان لابد أن تكون ذات اهمية خاصة .. واختار اسماعيل أوجينى امبراطورة فرنسا .. ولـكى يدعو الامبراطورة لزيارته فى مصر صنع حضارة هامة تتلاءم مع اهمية شخصيتها ، وكانت المناسبة التى ستحضر فيهـا هى افتتاح قناة السويس ، واقامة أول خط سكك حديدية مصرية من الاسماعيلية الى القـــاهرة ، وانشاء دار للأوبرا تتفرج فيها الامبراطورة وكلف ملحنـــا ايطاليا مشهورا بتلحين أوبرا جديدة خصيصا لهذا الافتتاح هى أوبرا عايدة التى كتب مادتها التـــاريخية مريت بك المؤرخ ومؤسس المتحف المصرى والـذى لا يزال يوجد شارع باسمه فى القاهرة ، ومن هذه المادة التاريخية الف كامى دى لوكلى المسرحية .

عايدة :

وتدور وقائع أوبرا عايدة حول القائد راداميس الذى

يحب عايــدة الحبشية التي اختطفت وبيعت لتعمـــل وصيفة لبنت فرعون الأميرة امزيس التى تحب بدورها القائد راداميس وهاجم الأحبـــاش مصر بجيش ضخم يقوده الملك عمو ناصر ملك الحبش شخصيا ، ووقعت عايدة بين نارين ، فهى ابنة الملك عمو ناصر وتدعو الله أن ينصره على القائد الذى أحبها واحبته،ولكن راداميس ينتصر ويأسر أباها ويحضره الى منفيس ، واقيمت حفلة استقبال للقائد ، وفى الحفل صاح الناس طالبين قتل الأسرى ، ولكن القائد طلب من الفرعون العفو عنهم ، وعفا الفرعون عنهم على أن يبقى ملك الأحباش وابنته رهائن حتى لا يعاود الأحباش الحرب ، ووافق فرعون الذى أعلن خطبة باراديميس لابنته مع تعيينه وليـــــا للعهد .

وذهبت عايدة الى المعبد كما ذهب والداها وحرضها على معرفة الطريق الذى سيسلكه الجيش المصرى من حبيبها القائد ليقابله الأحباش ، وحضر القائد الذى كان يريد أن يهرب مع عايدة الى حيث يتمتعان بحبهما ، فهو لا يريد أن يتزوج ابنة الفرعون الأميرة أمزيس التى ظهرت فى هذه اللحظة ومعها الكاهن ورئيس الحـــرس وامسكوا بالقائد لخيانته .

وحضر الفرعون وحكم على باراداميس بالدفن حيا ، وأعدت له حجرة تحت الأرض ودفن بها واغلقت عليه بالأحجار .

وفى القبر ظهرت عايدة التى كانت قد غافلت الكهنة ونزلت الى القبر لتموت مع حبيبها .

وانتهت الأوبرا بباراداميس يحتضن حبيبته عـايدة وسط الظلام .

وهكذا فان اسماعيل باشا الذى تخيل نفسه فارسا من شيفاليهات العصور الوسطى قد نجح فى علاقته بالأمبراطورة أوجينى التى ظلت محافظة على العهد حتى بعد أن زال عنها وعنه العرش فهى تزور أسرته مرة كل عام لتجتر الذكريات كما جاء فى مذكرات الاميرة جويدان .

النقطة السوداء :

والمهم ان مشاريع اسماعيل كثرت وزادت فغرقت البلاد في الديون ، وفى نفس الوقت خافت الأسرة منه فاستطاعت أن تعزله عن العرش وتعين توفيق بدلا منه .

وتوفيق فى تاريخنا نقطة سوداء ، فانه يبدو أن الأسرة التى عزلت اسماعيل النشيط رات أن تعين أضعف امرائها شوكة خديويا جاهلا لا يدرك مجرى الأمور فحين طالب الضباط المصريون مساواتهم فى المرتب بالضباط الأتراك فى الجيش تصرف معهم بطريقة ادت الى قيام الضباط المصريين بثورة ضده بقيادة عرابى .. وهو بدلا من ارضاء الثائرين قرر اغلاق المدارس التى تسببت فى تعليم الناس ان لهم حقوقا ، كما اغلق المصانع التى ادت الى وجود تجمعات عمالية ثم ...

ثم كانت الجريمة حين استنجد بالجيش الانجليزى ليضرب المصريين ويحتل مصر .

زوج جويدان :

وفى سنة ١٨٩٢ توفى توفيق واستدعى ابنه الخديوى عباس حلمى الثانى آخر الخديويين المصريين فقد أبطل اللقب من بعده وسمى من حكموا بالملوك .

كان عباس فى الثامنة عشرة يدرس فى كلية «الترزينوم» بالنمسا وهى كلية مخصصة لأبناء الملوك والأمراء .

وبدأ عباس حكمه بمسرحية ، فطلب من رئيس الوزراء مصطفى فهمى الذى اشتهر بانه صنيعة الانجليز ان يقدم استقالته بسبب سوء صحته ،ولم يستسلم رئيس الوزراء ، بل طلب من الخديوى استشارة اللورد كرومر ، وكان كرومر هو المعتمد البريطانى فى مصر ، والحاكم الانجليزى الفعلى لها ، فما كان من الخديوى الا ان اصدر قرارا باقالة الوزارة لاعتلال صحة رئيس الوزراء ، وعين بدلا منه حسين فخرى باشا .

وقابل المصريون هذا التغيير بفرحة وأمل .

ولكن كرومر لم يستسلم له وهدد عباس ، وانتهى الأمر بتعيين وزارة جديدة ورئيس وزراء جديد هو رياض باشا ، وارسل الخديوى خطابا الى اللورد يستسمحه ويعلنه انه سياخذ بنصائحه فى المستقبل .

كانت المسرحية الثانية هى حين سافر الى الصعيد فى رحلة عسكرية للتفتيش على الجيش وفى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ وعند حدود السودان فى بلدة حلفا استعرض فرقة عسكرية مصرية بقيادة ضباط انجليز فأبدى انتقادات اغضبتهم وأدت الى ان اللورد كتشنر سردار الجيش

(امين سر) فى ذلك الوقت قدم اســـتقالته ، فاضطر الخديوى الى الاعتذار له رسميا .

على ان أهم حادث فى عهده هو حادثة دنشواى .

وفى ١٣ يونيو ســـنة ١٩٠٦ كان بعض الضباط الانجليز يصطادون الحمام فى بلدة دنشواى ، وهى بلدة تابعة لمحافظة المنوفية واسمها الآن « الشهداء » .. وقد أصـــابت رصاصة من رصاص الانجليز حطبا فى جرن فأوقدت فيه النـــار وجرحت امرأة تصدت لهم فهاجمهم الأهالى ودارت معركة بالطوب ضد الانجليز .. وأصيب بعض الضباط وجرى احدهم لمسافة كيلو مترات سقط بعدها ميتا ، وثار الانجليز واجريت محاكمة فى شبين الكوم وحكم بالاعـــدام على اربعة كما حكم على آخرين بأحكام مقيدة للحرية مختلفـــة بين الاشغال والسجن وحكم على البعض بالجلد .. وشنق الأربعـــة فى نفس بلدتهم دنشواى أمام أهلهم وأقاربهم .

وكان عباس معتادا على السفر الى الآستانة فى تركيا لقضاء الصيف هناك ، وفى صيف سنة ١٩١٤ وهو فى مصيفه هذا أطلق عليه شاب مصرى الرصاص فأصيب بجروح وقتل الحرس الشاب المصرى ، فلم يعـــرف الدافع للجريمة .

وفى نفس السنة قامت الحرب العـــالمية الأولى ، وما دام الرجل لم يمت بالرصاص فليخلع عن العرش ، وهكذا خلعه الانجليز من منصبه ومنع من العودة الى مصر وعين بدلا منه السلطـــان حسين كامل اكبر امراء أسرة محمد على سنا .

وجويدان زوجة هذا الخديوى كما نرى من مذكراتها

التى كتبتها تريد أن ترينا انها امرأة طيبة خيرة متدينة ، وان زوجها ايضا يتميز بهذه الصفات ، ولكن القلم يفلت منها فى بعض الحالات فتظهر الرجل على حقيقته ، جاهل محب للمال ، فهو كرجل جاهل يعتقد ان قراءة الكتب مضـــيعة للوقت ، وهو حين يراها تقرأ فى كتـــاب يسألها :

ــ ما هذا الحمار ؟

ثم هى تحدثنا عن عقلية زوجها التجارية التى جعلته يهتم بالتجارة والمـــال وتنمية الثروة أكثر من أى شىء آخر .. والحق ان عباس كان ناجحا فى هذا المجال فانه عندما تأكد انه أن يعود الى مصر تنازل للملك فؤاد عن العرش مقابل ثلاثين ألف جنيه كراتب سنوى ، كما انه لمـــا مات فى جنيف يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ قـــدرت ثروته رسميا بحوالى سبعة ملايين من الجنيهات .

والقـــارىء لمذكرات جويدان يلاحظ انها تجاهلت الأحداث السياسية ، ربما لأنها حين كتبت مذكراتهـــا خافت من أن تقحم فى ألاعيب السيـاسـة .

سعد رضوان

الأميرة تصف الأفراح والحفلات المصرية

قالت الأميرة جويدان فى وصف الأفراح والاستقبالات المصرية :

« لا توجد أمة فى العالم تتفنن فى اقامة أفراحها كلها كما يفعل المصريون ، فانهم لا يدخرون شيئا من أسباب السرور والانشراح الا أدخلوه فى أفراحهم مهما كلفهم هذا ، وليس ذلك مقصورا على الأغنيـــاء والموسرين منهم فقط ، بل العائلات المتوسطة والفقيرة أيضـــا تنفق على الأفراح نفقات تربو كثيرا على ما تسمح به ثرواتها ، وكثيرا ما يكون الزواج سببا فى افلاس بعض العـــائلات وضياع مالهـــا ، وأكثر النفقـــات تـكون فى ليلة الخطبة فى بيت الزوجة ، وليلة الزفاف فى بيت الزوج ، ثم وصفت حفلة زفاف ، ودهشت كثيرا لتنوع أسباب اللهو والهدايا الغالية .

وصف حفلة زفاف

كانت العروس ابنة لأحد الباشوات ، تتجاوز سنها الثالثة عشرة ، وكانت مصابة بالتهاب رئوى شديد ، ولكن الطبيب قرر أنه لا خطر هناك يستدعى تأخير موعد

الزفاف ، فضلاً عن ان التأخير فى ذاته يكبد خسارة كبيرة ، اذ تستدعى فى ليلة الزفاف عدة أجواق تمثيلية ومطربون وراقصات وغير ذلك ، أضف الى هذا أن المصريين جميعا يتشاءمون من تأخير الزفاف عن موعده .

كانت أسباب السرور بالفة حدا لا يتصوره العقل ، فالمصرى فى اقامة افراحه يأبى أن يستمع لصوت العقل، ويتبخر تفكيره تحت أشعة الشمس الحارة ، ويستسلم للأمل (ان شاء الله) فربما أنتج القطن محصولا جيدا يعوض عليه كل هذه النفقات ، ومصر بلد العجائب ، فكل شىء فيه جائز .

عند الساعة الثامنة مساء نبهتنى وصيفتى فى سراى (مسترد) الى أن الوقت قد حان لارتداء ملابسى والذهاب الى الحفلة ، فلم أر بدا من أن اتبعها الى غرفة الزينة ، واستسلمت الأيدى الوصيفات الكثيرات حتى تمت زينتى ، وبعد أن ثبت (اليشمك) فى (الهرطوس) بطريقة لطيفة ، ركبت العربة الى حفلة الزفاف ، وفى الطريق جعلت افكر فى هذه العروس الطفلة !!

ترى هل ستكون سعيدة ؟ لأنها لا تزال طفلة وخطيبها لم يزل فتى صغيرا ، فهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وقد كان رفيق طفولتها وطالما لعبا معا ، فلما أراد الحجاب أن يفرق بينهما جمعهما الزواج ، وأصبح رفيق الطفولة رفيقا للحياة ، وهذه الحالة نادرة فى مصر ، فغالبا لا تعرف العروس عن خطيبها شيئا ولا تراه الا خلسة من وراء ستار نافذة مشبكة بالحديد ، فيا ترى اى عاطفة تجيش فى صدر الفتاة نحو

ذلك الغريب الذى سيصبح زوجها ، انه سينقلها من دور الفتاة الى دور الزوجة ، ولكن هذا هو كل شيء ، فالجو الذى سيحيط بها لن يتغير عن الجو الذى أحاط بها فى بيت أبويها ، فالنوافذ مغلقة والأبواب موصدة والأغوات على الأبواب والجوارى يقمن على الخدمة ، وغاية ما هناك تبدلت وجوه الخـــدم ، فهل تستطيع الفتاة أن تحب مثل هذا الزوج ؟ ولنفرض انها تريد أن تحبه ، فهل تستطيع ان تنفذ هذا العزم ؟ وهل الحب سلعة تؤخذ بالمساومة ؟ أليس الحب قوة قاهرة لا تستطيع النفوس صده ، فهل ضعف الحب حتى أنه لا يستطيع كسر هذا الأغلال ، أم أصبح الناس لا يستحقون نعمة الحب ؟

تدفقت الأنوار الى داخل العربة ، وصدحت الموسيقى، واصطف النـــاس ، وتمهلت الخيل فى سيرها ليتسنى للقوم ذبح الذبائح أمام العربة اكراما لى ، وأخيرا وقفنا أمام باب الحريم ، حيث استقبلنى عدد كبير من النساء والجوارى ، فنزعت قناعى ومعطفى ، وقدمت الى مرآة مرصعة بالجواهر لأتفقد زينتى ، واستقبلتنى على رأس السلم أم العروس وأم العريس (وداد هانم) وهذه الأخيرة تعتبر فردا من أفراد العائلة ولها المقام الثانى بعد الأم .

ولم أستطع ـ رغم محاولاتى ـ منع النساء من تقبيل ثوبى ، وسرت بين مظـــاهر الترحيب والسلام الى الصالون الذى أعدوا لى فيه مقعدا كبيرا مغطى بالكشمير، وجلست باقى السيدات على وسائد من حرير .

القهوة

ثم جاءت القهوة تحملها (قهوجى كلفا) على صينية مستديرة وجعلت تصبها فى فناجين اطباقها مرصعة ، وفى فنجان تحمله جارية الى الهوانم وهى خافضة الرأس ، ثم اتجهت كل الأنظار لى ، لأن التقاليد تقضى بأن أكون أولى البادئات بشرب القهوة وهن من بعدى .

وبعد الانتهاء من شرب القهوة الأولى — أقول الأولى لأنه سيعقبها قهوات ، فمن عادة المصريين انهم يديرون القهوة على الجميع كلما جاء ضيف جديد — طلبت رؤية العروس .

العروس

ارادوا احضار العروس الى ، ولكنى رفضت وابيت الا أن أذهب اليها بنفسي اكراما ليومها السعيد ، فوجدتها جالسة على مقعد عال فى صالون خاص ، فكانت كالتمثال المعروض ، ولما رآتنى مشت الى ، فتأثرت لمنظرها ، واحتضنتها بين ذراعى ، ثم أخذت بيدها الى مقعدها ، فانى أعرف انها مريضة لا تستطيع الوقوف رغم ما تبديه من جلد فى مغالبة آلامها واخفاء ما تشعر به وهى تبتسم لجيش النساء الذى يمر امامها ، وكل واحدة تدعو الله أن يقيها شر العين والحسد ، وتختلس النظرات الى المجوهرات تحاول أن تقدر ثمنها .

كانت العروس ترتدى ثوبا من الأطلس موشى بالذهب

وعلى راسها تاج مرصع بالجواهر يتدلى من تحته نقاب يشمل كل جسمها ، وفي هذا النقاب أربعة أحجار كريمة عند الجبهة والذقن والخدين ، وفي اذنيها قرطان من البرلنت ، وفي جيدها ويديها عقود واساور لا عــــدد لهـــا .

كانت الدادة تنتهز فرصة خلو الغــرفة من الزائرين لتقدم الى ربيبتها شيئا من المرطبات لتجديد قواها ، فشعرت بدمعة تترقرق في عيني رثاء لتلك الفتاة ، وحولت وجهي عنها وانا اغالب نفسي كي لا تسبقني الدموع ، اذ لا يجوز ان ابكي وبخاصة في هذا الموقف ، وكأن الدموع عرفت حرج مركزي فأجابت ندائي وامتنعت.

ثم شاهدت الهدايا المقدمة للعروس ، والى جانبهــــا الهدايا المقـــــدمة الى الدادة ، وهي هدايا من انفس ما رأيت ، وكانت معروضة في غرفة خاصة ، فيهـــا سرير العرس ، وهو سرير فاخر ، قوائمه الأربع مرصعة بالأحجار الكريمة ، ولكن هذا السرير لا يستعمل الا ليلة العرس ، ثم يحفظ بعد ذلك كتذكار جميل لتلك الليلة السعيدة .

انتقلنا بعد ذلك الى الشرفات والنوافذ لنشرف على الألعاب الرياضية التي تجري في السلاملك ، فجلست في شرفة على مقعد وثير يحيط بي سرب من الهوانم ينظرن الى أي اشارة من يدي ليقدمن لي السجاير ، ولا أكاد أشير برأسي حتى أجد أنواع المرطبات امامي ، وكان كل هذا يجري بلطف وكرم لا تكلف فيه ، فالكرم عند الشرقيين ليس ظاهرة متكلفة ، وانما هو شعور داخلي فياض ، حتى أن الضيف يشعر بأنه فرد من أفراد العائلة .

زفة العروس

أعلنت ربة البيت بأن الزفة ستبدأ ، وهرعت السيدات الى غرفة الاستقبال ، ووقفن صفين ، وحملت الجوارى الى الهوانم أكياس الذهب ، ثم فتح الصالون ووقفت العروس على بابه برهة ، ثم بدأت تسير بخطوات صغيرة ، وقد تدلت من التاج الذى على راسها خيوط طويلة من الذهب ، وسارت الدادة وبعض الجوارى أمام العروس يدعون لها بالوقاية من العين والحسد ، وكلما تقدمت انحنت لها السيدات ، والقين الذهب والزهور تحت قدميها ، وكل سيدة تحاول أن تأخذ خيطا من الخيوط الذهبية ، لأنهن يعتقدن أن هذا يجلب الحظ ، وبعد أن أتمت العروس طوافها عادت الى الصالون وجاءت الراقصات .

الراقصات

كانت أجسام الراقصات تقريبا عارية ، وجعلن يتثنين ويتلوين على نغمات الموسيقى ، ثم يقتربن برءوسهن من الزائرات وينظرن اليهن بتوسل ، فكانت الهوانم يلصقن الذهب فى وجوه الراقصات ، فلما لم يعد فى وجوههن مكان خال أخذت قبضات الذهب تتناثر عليهن وهن يلتقطنه بين صيحات الفرح والسرور ، وبعد ذلك عدنا الى الشرفات لنرى ما يجرى فى السلاملك .

زفة العروس

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء وشرب القهوة ،

طلبت ربة البيت من السيدات الســـــــماح للعريس بالحضور بنفسه لشكرهن على التنـــــازل بالتشريف ، وطبعا اجابت السيدات الطلب بادب واخذت كل منهن تصلح زينتها وتتفقد ملابسها ، ثم وقفن صفين فى انتظار العريس .

وقف العريس فى الباب مبهوتا ، وقد اخذه بريق الجواهر ولالأة الوجوه التى تنظر اليه ثم انحنى حتى كاد يلمس الأرض ، وكان فى انحنائه يشعر بانه يقــدر الجمال الذى يراه ، ويشكر السيدات على سماحهن له برؤية وجوههن سافرة ، واخذ ينتقل من وجه الى وجه كأنه يريد أن يشبع النظر من تلك الوجوه ، ثم اخــذته أمه من يده وقادته الى مكانى ، حيث قدم لى القهــوة بيد ترتعش ، ولما انتهيت من شربها انحنى مرة أخرى وغادر الصالة .

اغرب هدية

وفى هذه الليلة وقع ما أدهشنى وعقد لسانى ، ولأول مرة فى حياتى أغلق على فلم أعرف ماذا أصنع !!

انحنت أمامى زوجة أحد الوزراء وقالت : « يا صاحبة السمو ، لقد عجزت عن اختيار هدية تعجب سموكم ، فعندكم كل ما تشتهى الأنفس ، وليس لى الا ان اقدم لــكم أعز شيء عندى » ويظهر ان السيدات كن يعرفن هذه الهدية النفيسة ، لأنهن كن يتبادلن النظرات !!

ذهبت الهانم وعادت تقود طفلا صغيرا فى يدها ، يبلغ من العمر خمس سنوات . . . انه طفلها . . ومع ذلك فهى تقدمه هدية الى . . !! ولأول مرة فى حياتى لم

اعرف ماذا أصنع .. وجمدت فى مكانى ، وتقدم الطفل حتى أخذ مكانه عند قدمى .. ولكى أنقذ موقفى أخذت الطفل بين يدى ، واستعضت عن الكلمة بالقبلات .. ولكن موقفى ما زال حرجا ، فانى اشعر بانه يجب ان افعل شيئا او اقول كلمة ، ولكن المفاجأة عقدت لسانى ، فخاننى الكلام .. ومن ذا الذى يتصور أن الاطفال تدخل فى باب الهدايا .. وما عسى أن يكون شعورى نحو هذا الطفل .. لقد أصبح الآن طفلى .. ولكن هذا جنون ... لماذا أهدتنى هذه السيدة طفلها ؟؟ انها لا تعرفنى ولا تعرف عن نفسى شيئا .. انها لا تعرف الا اننى زوجة الخديوى ، ولهذا أهدتنى طفلها .. اذن فالطفل لم يهد الى أنا .. وانما أهدى الى زوجة الخديوى .

لم يستغرق هذا التفكير اكثر من بضع ثوان .. رفعت بعدها رأسى الى السيدة وابتسمت .. ثم أجلست الطفل جانبا .. وعانقتها .. فالانسان قد تخونه الألفاظ أحيانا .

ولما علم الخديوى بمجمل القصة امتعض فى نفسه ، واصبح الطفل حملا ثقيلا علينا ، ولم ندر كيف نتخلص من هذا الموقف ، الى أن انقذ الطفل نفسه ، فانه بعد ثلاثة أيام امتنع عن الطعام واكثر من البكاء ، طالبا أمه التى تخلت عنه لغرض فى نفسها .. فأعدته الى أمه ومعه عربتان محملتان بالهدايا .

أثناء الحرب بين تركيا وبلغاريا
كيف كانت الحياة في سراى المنتزه ؟

منذ بضعة أيام أرسل الخديوى يخته الخصوصي (المحروسة) الى قولة ، وامر الربان أن يحضر معه كل من يستطيع احضاره من الهاربين بدون تفرقة فى الجنسية أو الدين ، وأعدت سراى راس التين ماوى لهؤلاء الهاربين ، فكنا نسافر صباح كل يوم من سراى المنتزة الى سراى راس التين حتى نبدأ العمل على الفور فى تهيئة الغرف الخالية فى السراى لتكون ماوى للهاربين .. قسم منها للرجال وقسم للنساء .

دبت الحياة فى الصالات التى ظلت مقفلة مدة طويلة ، فأقيمت فيها مئات الأسرة والمراتب حتى أصبحت شبيهة بالملاجىء .. وأعدت بعض الغرف للأطفال .. وكذلك أعدت بعض الموائد فى منعزل لغسل ملابس الرضع وتغذيتهم .. وكان يصل الى السراى كل يوم عدد وفير من الصناديق من تجار مصر والاسكندرية الذين أرادوا الإشتراك مع الخديوى فى ايواء هؤلاء المساكين ،وكانت الصناديق تحتوى على مواد غذائية وأقمشة وملابس واحذية وشرابات ودخان وسجاير وغير ذلك ، وكانت هذه الصناديق تفرز ويوضع كل شىء فى القسم المخصص له .

وكان الخديوى لا يمل العمل ولا يناله التعب ، فكان يشرف على كل شيء بنفسه ، وكان الانسان يرى طربوشه الأحمر فى كل مكان ، وكان اذا راى الفراشين يتباطأون فى فتح صندوق اخذ الكماشة منهم وسحب المسامير وأزاح الغطاء ، وكان ماهرا جدا فى هذه الأعمال ، حتى اننى أهديته صندوقا به مختلف الآلات الصغيرة مصنوعة من الفضة ، واظن انه ما زال يستعمل هذه الآلات الى الآن .

وكانت هذه الأعمال لا تعوق الخديوى عن المقابلات ، فاذا حضر أحد لمقابلته ، أسرع (التشريفاتية) يبحثون عن سيدهم فى غرف القصر الكثيرة ، فاذا ما ظفر به احدهم بعد جهد ، كان منظر الخديوى وملابسه لا يسمحان بالمقابلة ، فيسرع الخديوى الى غرفته الخاصة ، لدرجة ان (التشريفاتى) لا يستطيع اللحاق به ، وهناك يعد له خادمه الانجليزى (فريدريك) ما تيسر من الملابس للمقابلة .

وعند الظهر نتناول الغداء على خوان صغير مستدير ، وضع لنا حيث نريد ، وكنت أرتدى معطفا من الكريب دى شين فوق ملابسى ، واغطى راسى بقناع خفيف ، ففى هذه الملابس كنت أستطيع الظهور أمام الرجال ، ويقوم على خدمتنا بربرى واحد .

وما كان اشهى الغداء معه ، ولم أر انسانا يجيد (تقشير) البرتقال مثله ، ونتحدث عن أشياء كثيرة ، وكان ينقصنى فى قسم الاطفال اللبن وزجاجات اللبن والبودرة ، ولو اننى ذكرت مائة شيء لما نسيت ذاكرته الحادة شيئا منها . فاذا مضت مدة لم نتقابل فيها ثم رأيته بعد ذلك ، كنت ادهش لمنظر وجهه .. انه وجه

جميل ، تنبعث من عينيه الرماديتين نظرة حادة ، وكان حاجباه يشعران بالشك ، ولكن كم كان يتغير هـــذا الوجه عندما يبتسم ، فانه يصبح جذابا . ولم أر مثل هذه الجاذبية في وجه غير وجهه ، وكان فمه اجمل شيء فيه ، فانه كان يشبه فم الأطفال ، وعندما كنت اقول له ذلك كان يضحك كالأطفال ، ثم يقول لي (يا طفلتي) ثم يعقب هذا مداعبا بقوله : « يا عروستي الصغيرة » وفي الواقع كنا نلعب كالأطفال ، فكنا نلعب كثيرا مع الكلاب التي كنا نحبها على السواء ، وكنا نتسابق في الغرف والممرات ، ويجري الواحد اثر الآخر ، وكنا احيانا نشرب القهوة بصوت عال جدا كما لو كنا من العامة او نلفظ نواة تمر الكريز من الفم لنرى اينا يستطيع قذفها ابعد من الآخر ، ولا ضرر في ذلك فانها كانت تقع في حديقتنا. وغاية ما هنالك كان الحراس يندهشون ، بالاختصار كنا نحب بعضنا .

على انني هنا لا اريد أن اكتب عن الحب وانما اكتب عن البغضاء . عن الحرب . عن التشريد . عن الجوع .. ترى كم سيكون عدد الهاربين الذين ستنقلهم المحروسة ؟ والآخرون المتخلفون في قولة ، ما هو حالهم ؟

عندما أهدت القيصرة « أويجينا » يخت المحروسة الى اسماعيل باشا جد عباس حلمي لم تكن تفكر في ان هذا اليخت سينقل جماعة من الهاربين . وان اقـدامهم الحافية ستدوس على فراشه الفاخر ، ولطالما اقلنـا هذا اليخت في رحلات جميلة .

وبعد الغداء يبدأ العمل من جديد ، وكان على أن ارتب ملابس الأطفال ، تســـاعدني في ذلك وصيفتي (هرملين) ومدربتي على الألعاب الرياضية (مايسكي)

فكنا الثلاثة نقوم بعمــــل شاق . وكانت (مايسكى) تشجعنى على الاستمرار فى العمل بقولها « ان هـــذا الاجهاد مفيد يا صـــاحبة السمو فانه يحفظ للجسم رشاقته » ولكني بالرغم من هـــذا الاغراء كنت اشعر بالسرور عندما يدعوننى لتناول (دندرمة العصر) مــع الخديوى ، وكان يحب الدندرمة التركية ، وهى المخلوطة بالقشطة . وفى هذه الاثناء ورد تلغراف بأن المحروسة ستعود حاملة الفى هارب مسكين فشعرت بخجلى أمام نفسى لأنى كنت أتنـــاول الدندرمة الشهية وهؤلاء حط عليهم البؤس .

وفى المساء اثناء عودتنا الى سراى المنتزة كنت أفكر طول الطريق فى هؤلاء الهاربين ، ولما استلقيت فى فراشى وأسدلت (هرملين) النـــاموسية لتحمى جسمى من عضات البعوض شعرت ببغضاء نحو نفسى .

***

أمس وصلت المحروسة .. هل كان ذلك أمس ؟ هل تستطيع العين ان ترى هذا البؤس الكبير فى مثل هذا الوقت القصير ؟ وقفنا على سلم راس التين ننظر الى البحر وقد نشرت صفحته تحت اشعة الشمس . وظهرت فى الأفق سفينة تجرى .. المحروسة .. وبالرغم من بعد المسافة فقد كانت أصــــوات الركاب تصل الى آذاننا ، وكأنما كانت الســفينة تحمل بكاء ودموعا . واقتربت السفينة ووضحت الاصوات . والف البؤس بين مئات الأنفس . فأرسلت موجة مظلمة من صيحات الألم تشق طريقها بين أمواج البحر الى قلوب من يواسيهم ويشفق عليهم فشعرت بانقباض فى قلبى ، وكأنما كانت تسيل منه الدموع ، فمددت يدى لأمسك بيد الخديوى

وقلت له « هيا بنا نساعدهم » ولكنى لم أجد الخديوى الى جانبى . اذ كان قد ذهب .. وكنت فى مكانى وحيدة .

اشباح تدثرت فى خرق بالية ، وقد فاحت رائحتهـا وهى تتدفق من السفينة الى سلم رأس التين فكانوا اشد الناس شبها بالبشر ، فان ظلم الانسانية سلبهم حقهم فى الحياة ، وجعل منهم مشردين بؤساء مخبولين . لا مأوى ولا أمل . فلم أتمالك نفسى من صب اللعنة على من كان السبب فى بؤس هؤلاء وامتلأت السراى الهادئة ــ التى أعدت لراحة حاكم البلاد ــ بأصوات البؤس والبؤساء !!

وقفت فى الصالة وامتدت أيدى النساء الى خرق بالية قذرة لففن فيها اطفالهن الجياع . فأى ذنب جناه هذا الطفل المسكين حتى يجوع ويعذب ؟ اى فائدة تعود على هؤلاء الوحوش البشرية من قتل الأطفال ؟ ما أبعد الانسانية عن الشعور !!

كنت اخرج الأطفــال من اللفافات القذرة ، وقــد نال منهم الاهمال حتى اصبحوا لا يزيدون عن انهم كومة من لحم تدب فيها روح ، وكانت الأمهات قد حملنهم أسابيع وشهورا يهربن من مكان الى مكان والخوف يطاردهن ، حتى عندما آوتهن السفينة كان الخوف لا يزال مستحوذا عليهن فأبين مفارقة أطفالهن لحظة ، ولما وصلن الى رأس التين كن لا يصدقن انهن قد نجون ، فكانت كل امرأة تتلمس طفلها وتضمه الى صدرها لتتأكد من وجوده معها ، وكثيرا ما سلمنى النساء مع أطفالهن بعض المسـدسات والخناجر ، ولعلهن كن قد أعددنها للدفاع عن اطفالهن ، فما أفظع الأيام التى تقضى على المرء أن يقتل نفسا للدفاع عن أخرى ، وقد جنت امرأتان كانت قد مضت عليهما

مدة وهما تتهربان من مكان الى مكان والخوف يمـــلا قلبيهما ، فلما اطمأنتا الى مكان واستراحتا من الهرب تجسمت فى مخيلتهما الحوادث الماضية بشكل أشــد وأروع فطار عقلاهما شعاعا .

لم تكن مساعدة هؤلاء سهلة كما قد يتصور الانسان ، ولو انهم استطاعوا قراءة قلبى لكان من السهل التغلب على الصعوبات ، وكانوا يعـــانون صعوبات كبيرة فى ادخال هؤلاء الى الحمام ، وكنت قد عهدت بالحمامات الى أحسن خادماتى ، وهن بولونيات من مدينة «أونيول» القريبة من الآستانة ، ولهذا كن يجد اللغة التركية ، ولكن النســاء لما علمن انهم غير مسلمات خشين منهن شرا وابين الاستسلام اليهن فى نزع الملابس والاستحمام ، مع انهن كن من الضعف بحيث لا تستطيع احداهن ان تحرك يدها وكان لابد أن يغتسلن لازالة ما علق بهن من الأوساخ ، وتغيير ملابسهن البالية القذرة بأخرى نظيفة لـكى يستطعن الراحة ، فذهبت اليهن ، وكن يعرفن انى هانم أفندى ، ويأتمننى على أطفالهن ، فقلت لهن مهدئة (الخادمات مسلمات لأنهن يؤمن بالله) وبذلك استطاعت الخادمات مزاولة العمل ، وأما الملابس القديمة فكانت تحرق على الفور ، وكان العمل كثيرا ومستمرا كدولاب لا يقف ، على انه لم يكن قسمنا هو الوحيد الذى يعمل، بل ان أكثر العمل كان على عاتق رئيس الاطباء الدكتور (كاوتسكى بك) فانه ومن معه كانوا يفحصون كل واحد من الهاربين فحصا جيدا ، فـــكان منهم المرضى والجرحى وبعض النساء كن هاربات بحروق شديدة ، فما أشد بؤس هؤلاء المساكين الذين ذاقوا كل ويلات الحرب القاسية .

أما الخديوى فكان يعمل فى قسم الرجال ، وكان يأتى ليرانى بين الحين والحين ، فكان منظرى وانا احمل طفلا بين يدى غريبا عليه ، لأنه لم يألف ذلك منى ، وكان قلبه يخفق لرؤية الأطفال على العموم . واذكر اننا كنا فى رحلة ، فلما وقف القطار الخاص فى احدى المحطات . هتف مئات من الأطفال .. اصطفوا فى المحطة (أفندى مزجوق يشا) وقد اثر صوت الأطفال على الخديوى لدرجة أنه لم يستطع أن يحدث مستقبليه . نعم أنا اعلم أن لى قلبا رقيقا .. وفى المساء كنا نستقل القطـــــار الى سراى المنتزه بعد أن أدى كل منا عمـــــلا مشكورا .

***

لا يزال العمل مستمرا فى راس التين سائرا من تلقاء نفسه ، وبدا يزول عن الوجه ذلك الأثر الذى رايته فى نفوس الهاربين فى اليوم الأول ، وهو الذى محـــــا الشخصية الفردية والف بين قلوب الجميع فجعل منها كتلة واحـــدة متضامنة ، ولـــكنهم ما كادوا يحتـــكون بالحياة مرة أخرى حتى اختلفت مشـــاربهم وعاداتهم ، وبدأت العائلات « الراقية » تفصل نفسها عن العائلات « الدنيا » فليت شعرى متى تزول هذه الفوارق ؟ الا يفكر الانسان فى التنازل عن تلك الفوارق الا اذا حلت به المحن وطحنه البؤس ؟ أليس الناس كلهم سواء ؟ أم تراهم لا يشعرون بذلك الا عندما تمتد اليهم يد الموت ؟ الا تجمع الأمومة بين كل الأمهات فيحببن جميع الأطفال كما يحببن أطفالهن ؟ أم اصبح الشعور وقفا على من اتصل بنا بالاسم أو بالقرابة ؟ واها للشعور اذا كانت حدوده « أنا » و « نحن » واذا كان منتهى ما يصل اليه هو تجزىء

القوة العامة وتحويلها الى ملكية فردية . الا يحمل هذا التجزيء عقاب الانسانية بين طياته ؟ اليس هو السبب فى تناكر النـــــاس وموقف بعضهم من البعض موقف الغريب ؟ وشعور الفردية هذا بين الناس يجعلهم ينفصلون الواحد عن الآخر .. وهنا تبدأ العداوة .

اذا كانت قيمة ما يفعله المرء لا تظهر الا اذا اختص بها أناس دون آخرين ، فليست هذه الأعمال الا أنانية من الانسان وشعورا كاذبا لا يصل أثره الى أبعد مما يصل الانسان نفسه .. ألا توجد وسيلة تجرد الانسان من هذه القيود الخيالية غير الخوف أو الموت ؟ ما أغرب مكان فى هذا القصر ؟ ماذا أبتغى فيه ؟ ان المساعدات التى أقوم بها لهؤلاء المساكين ما كنت لأقـــدر عليها لولا مركزى الخاص ونفوذى وقـــدرة المال ، وهذه المؤثرات على الخصوص أريد أن أنساها .. انها تثقل كاهلى لا أريد مركزا ولا نفوذا ، وانما أريد أن أساعد كل فرد من خالص نفسى ، وأبعث فيه الأمل من أعماق قلبى ، أريد أن أكون للجميع على السواء ، فالأرواح فى أصلهـــــا أخوات ، لا أريد أن أسمع شيئا عن الرفيع والوضيع ، ولا أعرف ان هناك أرواحا سعيدة وأخرى شقية . وقد تنقلب الآية فيصبح السعيد شقيا والشقى سعيدا اننى أفهمهم جميعا لأنى أحبهم على السواء ولا أعترف بعظمة غير عظمة المساواة . وأنت الا ترى ان السبل تفترق بنا كثيرا فى هذه النقطة .

لا أظن اننى سررت فى حياتى لبلوغ أمنية أو تحقيق رغبة بمثل سرورى الأمنية اليـــــوم . وذلك لاتصالى بصميم مصدرها ولعلمى بأنى لم أنلها بالرجاء وانمـــا أستحققتها بخدمة الانسانية . فقد ولدت فتـــاة وجاءنى

أهلها يسألوننى الاذن بتسميتها باسم « جويدان » اننى أعتبرهم جميعا اطفالى حتى ولو لم يحملوا اسمى . فياجويدان الصغيرة لئن كانت هديتي اليك ليست الا أمنية ودعاء فانها أن تحققت كمـــــا آمل فستوافقك السعادة أينما كنت وحينما نزلت .

كان أغلب الهاربين من المســـلمين . ولكن كان منهم المسيحيون واليهود أيضـــا . ولـكننى كنت أعمل على اسقاط الفوارق الجنسية والدين حتى لا يظن احد منهم أنه مفضل على غيره ، أو أن له حقوقا أكثر من الآخرين .. ووزعت ماكينات الخياطة فى قسم النساء . فـكن يخطن الملابس لأطفالهن أو لرجالهن ودبت فى الجميع الحياة فأخذوا يتحدثون عن آمالهم وأمانيهم . فمنهم من كان يفكر فى الرحيل لأن لهم اتصالا ببعض الجهات . ومنهم من لم يبق لهم فى الحياة غير أنفسهم . وهؤلاء كانوا يرون البقاء مؤقتا . على انهم جميعا كانوا يعلمون ان البقاء فى رأس التين ليس له زمن يحدده .

أما الخديوى فكان يكثر الاحتكاك بالرجال ويشاطرهم الشعور . فان طبيعته البسيطة المرحة كانت تجذب اليه القلوب وتبعث على الوثوق به . حتى أصبح يعرف قصة كل واحد منهم . ورغم انه كان يتنـــاسى مركزه الممتاز فى حديثه معهم . فانى أعتقد ان كثيرا منهم كان ينسى همومه ويرى نفسه سعيدا لأنه يتحدث مع خديوى مصر . فكان يسرنى أن أرى القلوب تحبه .

كنت أنظر من نافذتى فى الحديقة . فرأيت الخديوى يسير مع بعض الرجال وهم يدخنون . فخيل الى انى لأول مرة أعرف ان الخديوى لا يدخن . ولعل السبب فى ذلك هو أن الاحترام يمنع الناس من التدخين أمامه

حتى ولو سمح لهم بذلك . ولكنه كان حريصا على أن يوزع التبغ والسجائر على الهاربين يوميا . فكان هؤلاء يدخنـــون فى حضرته اعترافا بفضله وجميله . وكان لا يرى غضاضة فى ذلك . فكان يمازحهم ويضحك معهم ويسحرهم بحديثه فى الحديقة .

عدنا الى القاهرة ــ فاننا لا نمكث فى الاسكندرية الا مدة قصيرة أثناء الخريف أو الصيف ــ مع العــلم بأن الفصول الأربعة تكاد تكون لا معنى لها فى بلد تشرق فيه الشمس دائما . أما مقـــامنا فى الشتاء فانه فى القاهرة . ولم نسافر الى سراى المنتزه هذه المرة الا من أجل الهاربين وقد أصبحوا الآن آمنين يتمتعون بحياة منظمة هادئة بعد ان قدمنا لهم كل ما يمكن من المساعدة الخارجية . أما المساعدة الداخلية فانها عليهم أنفسهم . فلعل أمنهم فى سراى راس التين يدخل الطمأنينة على نفوسهم ويمحو منها الألم والخوف .

وقد كتب الخديوى أسماء هؤلاء المنـــكوبين فى كشف طويل واشار أمام كل منهم بما تتطلبه حاله من المساعدات بعد البحث والتحرى كايجاد عمل له . أو اعادة ترحيله . حسب الحالة . فأصبح مستقبل كثـــيرين من الأنفس والأرواح معلقا بهذه الورقة التى تقبض عليهـــــا يد الخديوى .

وفى القطار كان الخديوى ياتى الى كثيرا فى صالون الحريم . فكنت أزيح عددا كبيرا من الكتب لكى أفسح له مكانا الى جانبى . وفى المحطات الكبيرة كان الخديوى يقف فى نافذة صالونه ويخفف القطار من سرعته لكى يحيى من وقفوا لاستقباله فانهم كانوا جميعا يفرحون لرؤية أفندينا ولو من نافذة القطار .

وكان الخديوى يعمل مع معيته فى القطار فتعرض عليه الأوراق والاسترحامات ويضع البرنامج لليوم التالى فى عابدين . فان القاهرة كانت مقر الحكم والعمل والتشريفات الرسمية . ووقعت عينى على الشمس وهى تؤذن بالغروب وقد احمرت سبيكتها . فوددت او أن القطار ضل غايته . حيث نصبح كلانا أشخاصا تحركها الرسميات ويتحكم فيها الوسط وتحيط بنا دائرة محدودة لا نستطيع الخروج منها .

وددت لو ان هذا القطار أخذ يصغر ويتناقص حجمه حتى يصبح عربة واحدة ليس فيها الا أنا وأنت . لا أحد غيرنا . لا شيء سوانا . حتى ماضى وماضيك قبل أن نتعارف لا أريد أن يكون معنا الا ما أحدثناه نحن بأيدينا .

الى أين تريد الرحيل ؟ ماذا يبتغى هناك ؟ وما عسى أن يكون موقفنا الواحد نحو الآخر اننا لن نكون الا شخصين لا يجد أحدهما الآخر الا اذا تلمسه بيده تلمس الأعمى . أو تظن غير ذلك ؟

غابت الشمس واختفت أشعتها وسار القطار فى الظلام . واذا بى أسمع صوتك يقول : « فيما تفكرين يا عزيزتى ؟ لقد وصلنا » .

وصلنا ؟!

ارخيت قناعى وخرج الخديوى أولا من القطار وركب عربته البيضاء الى سراى القبة يتبعه رجال المعية . ثم غضت الأبصار ونزلت أنا الى حيث كانت تنتظرنى السيارة التى أقلتنى الى سراى مسترد .

سراى مسترد

كلما عدت من السفر ووقفت بى السيارة امام سلم السراى ينتابنى شعور غريب . كأنمـا سـتحدث أشياء مفاجأة . ولا أكاد أستقبل الردهة الكبرى ويقع نظـرى على ما ألفت من الأشياء حتى اشعر بأننى أصبحت فى بيتى وفى منزلى . ولكن شعورى كان يتغير مع كل خطوة أخطوها فى الغرف فكان يخيل الى ان هذه الاشياء تقوم كالعقبة فى سبيل نفسى . فأعانى كثيراً من الشدة فى ازالتها لكى أستطيع التقدم وما أتقدم الا لأستسلم لشعور آخر أغالب نفسى فيه وتغالبنى . فاننى لا أستطيع التنفس فى وسط أهملته يد العناية . كما ان نفسى لا تطمئن الى الحياة فى جو خلقته بنفسى وتجمعنى به أسباب كثيرة من الحوادث والشعور .

فان تعدد الحوادث والمشاهدات يكون جزءا من الحياة يجمع ما بين الماضى والمستقبل وله على الحـاضر أثر لا يمكن محوه أو نسيانه . واصبحت حياتى أشبه شيء بمسافر كلما قطع جزءا من طريقه ترك عليه قطعة من نفسه ، فهو يلقى النظرة تلو النظـرة الى الوراء ليستعرض أجزاء نفسه المبعثرة على عرض الطـريق الواسع ويسمع أصواتها تناديه لا لـكى يعود اليها ولكن لـكى يأخذها معه ويحملها حية من الماضى الى الحاضر الى المستقبل الى حيث يسير .

ليت شعرى ـ كيف يستطيع المرء أن يبدأ حيـاة جديدة ؟ ماذا يصنع بحياته الماضية ؟! ام هو لم يعرف الحياة من قبل ؟ هل أشبهت نفسه لوح الصبى يمحو منه ما كتب ؟ أم تراه لا يمحو شيئا . لأن اللوح لم يجر عليه خط ولم تثبت عليه كتابة ؟

يظهر ان الحياة لا تكتب حروفها الا فى نفوس نسجت صحائفها من نسيج يمتص الحروف امتصاصا لا يجعل هناك سبيلا لمحوها .. ولكن ما عسى أن تكون النتيجة وحروف الحياة لا تنتهى بل تتجدد .. فهـل يستطيع الانسان أن يحفظ كل هذه الحروف وبحملهـــا على صفحات نفسه الى حيث لا يعلم .

انى فى منزلى أطوف فى حجراته ، فمن ذا الذى يقول ان الاشياء جماد لا حياة فيها ؟ ان الأشياء تحفظ تاريخ الحياة وتجيـــد اعادة القصص . فكم من حلم جميل أستعيد قراءته من بين هذه الوسائد الحريرية ؟

كنـــا جالسين أمام المـدفأة ، وكنت أنظر الى نارها المشتعلة ولم يكن ضروريا أن أنظر الى وجهها لأنك كنت بأكملك ماثلا فى نفسى .. ثم بدأت الحـديث ولـــكن صوتك كان غريبا على أذنى كأنه صوت لا أعرفه . صوت بعيد عن دائرتنا .. وكان هذا الصوت يقص شيئا عاديا .. رجلا خان زوجته . ثم وجد نفســـه مدفوعا الى الاعتراف لزوجته بهذه الخيانة .. فهل يعلم هذا الرجل أن صرحه هدم ؟؟ وهل يشعر حقا بضغط الجريمة على نفسه فيريد أن يخفف عنهـــا بالاعتراف ؟ لم يحدث شيئا ، وظلت النار تشتعل فى المستوقد . واذا بيدك تقبض على يدى . وفى هذه اللحظة عدت انت كما اعرفه ، فابتسمت ابتسامة لا علاقة لها بأفكارى . ففى نظرك انتهى الموضوع بانتهاء القصص . وأما فى نظرى فقد ابتدأ كل شىء الآن . وانا اذا ابتدأت فلا توجد نهاية .

واستمرت الأشياء تحـــدثنى . وكان ضوء المصباح يسقط على البيانو .

ماذا دهانى ؟ هـــل جننت حتى انى أعذب نفسي

باسترجاع أمور أستطيع أن أدفنها فى زاوية عميقـــة ، فلا يكشف الغطاء عن حقيقتها ؟ .. ولكن .. ما قيمة هذه الحياة التى يعمل فيها الانسان الى أسرار غيره . فيتخذها سلاحا بعد أن يطليه بالطلاء الذى يهواه ؟ ما هذه المهزلة النفسية ؟ من هو ذلك العدو الذى أخشاه واحاول الاختفاء عن نظره ؟ الا يكون ذلك العدو هو نفسى ؟

كم من ليلة قضيتها باكية لا لشىء .. الا لأننى انكر على نفسى جزءا منها لا خلاص منه . فكنت أهجـــــر مضجعى واضغط وجهى الملتهب الى خشب البيانو الأملس . واسمع أوتاره تهمس فى اذنى « حذار » ! انك تسيرين فى طريق خطأ .. وأن الأمل الذى تسعين اليه لا ينهض به انسان بمفرده .

لا أريد أن أرى ولا أن اسمع ولا أن افكر اكثر من ذلك، وليت النسيان يكتنف هذه الليلة .. فتحت الباب المؤدى الى غرفة نومى وقع نظرى على الخاتم فى اصبعى .. انه خاتم من زفير وعليه اسمك .

كيف استطاعت أن تتنكر لتحضر الحفلات الرسمية ؟

استطعت ان انفذ ارادتى فى السفر لحضور افتتاح قناطر النيل (فحبكت) الطـــربوش على راسى جيدا وجربت الانحناءة عدة مرات فلم يقع الطربوش . ولاحظت انه اذا وقع فلا ضرر من ذلك لان شعرى كان مقصوصا . ولكن الياقة العالية كانت تضايقنى كثيرا ، وحشوت أكتاف الردنجوت بالقطن حتى لا يظهر اتســاعه وملأت (بوز) الجزمة (اللميع) بالورق . ولكثرة عزفى على البيانو كانت اصابعى تشبه أصابع الرجال .

بالاختصار .. كان شكلى يعجب كل سيدة لها ذوق سليم . وهذا الاعتقاد جعلنى أشعر بأننى أصبحت رجلا فعطرت منديلى وحملت حقيبتى الصغيرة المحتـــــوية على ملابسى الرجالى . وذهبت الى المحطة . وبينما كان الخديوى يحـــادث الرجال المحيطين به ركبت قطاره المخصوص . وكان طبيعيا فى مثل هذه الخطوة الجريئة الا تتم بمساعدة خادمه الخاص (فردريك) .

ولما تحرك القطار ورآنى الخديوى امامه لم يصـــدق عينيه ولم يتمالك نفسه من الدهشة ، فانه لم يتوقع

ان يرى مثل هذا السكرتير الأمين ، وفرح كلانا لهذا الموقف فرحا شديدا . ولكنى كنت أريد التمرن على الوقوف باحترام فكتفت ذراعى . وكلما قال كلمة رقيقة — طبعا لى انا وليس للسكرتير — أجبت عليهـــا أولا بانحناء واحترام . وبعد ذلك أجبت الاجابة الخاصة . ثم قال لى : « لا يجب أن تتكلمى يا عزيزتى » فوافقت على ذلك . فانه خير لى أن يعتقد النـــاس انى سكرتير أخرس من ان يظنوا انى أحد الأغوات اذا سمعوا صوتى الرقيق . وقد يذهب الناس الى ان شـــــدة الاحترام حبست صوتى . فالانحناء يقوم مقام الجواب وهـــذا يقوى موقفى وموقفـــه . ولم يعلم بسرى الا طورنسين باشا والدكتور كاوتسكى بك والخادم فريدريك . وذلك لاحتمال الاحتياج الى مساعداتهم فى بعض المواقف .

ووصلنا فى الصـــباح الى الأقصر . وكانت مزدانة بالأعلام . مزدحمة بالناس . وصدحت الموسيقى من كل مكان وكانت السفن معدة على النيل للخـــــــديوى وحاشيته . وسفينة الدوق أوف كنـــوت . وسفينة للوزراء . وأشرقت علينا الشمس جـديدة . وجـــرت السفينة فى ماء النيل . ووقف الفلاحون على الشاطئين يحيون الخديوى وهو واقف على ظهر السفينة . لا تفارق الأنظار عينيه . ووقفت الى جانبه أنظـــر الى النيل . فتحول تحت نظرى الى شجيرات باسقة من القطن وواد أخضر ذى زرع امتلأت ســـنابله بالحبـــوب . فعجبت للنيل يجرى هادئا بين ضفتيه الرمليتين . وهو يحمل هذه القوة العظيمة بين موجاته . فحيث جرى يجرى الخير فى أثره . حتى أصبح روح هذا الوادى .

ورأيت الثيران تدير الســـــواقى برفع المـــاء ورى

الأرض لذلك الفلاح الفقير الذى يعيش مع حيوانه فى كوخ متهدم من الطين . سقفه من قش الأذرة . والنيل يطعم هذا الفقير وذاك الغنى على السواء . فالفقير يأخذ منه كوخه . والغنى يبنى القصور وينفق من خيره الذهب ويتعشق النساء . فلا عجب ان عبده قدماء المصريين .. فكانوا يرون فيه المانع العاطى .

وسارت السفينة نحو السد الذى سيضمن تنظيم الرى وتوزيع الغذاء على أرض الشمس الدائمة واشتد الحر فى بدلة الردنجوت . فوددت فك أزراره . ولكن السكرتير يجب أن يقف فى صمت أمام سيده . فاننى كنت واقفة الى جانب خديوى مصر . وحاكم نوبيا والسودان وكردفان ودارفور ، ومن أجله نصبت الاعلام والزينات . واليه تتطلع أنظار الجمهور المزدحم على الشواطىء . وفى أرضه يجرى ذلك النيل العظيم . فانحنيت على يده وقبلتها . فنظر الى نظرة اندهاش أجبته عليها همسا « أفندى مزجوق يشا » ففهم ما أريد . وظن الآخرون أن السكرتير الجديد يشكر مولاه على نعمة أولاه اياها .

ليتنى كنت رجلا يا أفندينا لكى أستطيع خدمتك وخدمة بلادك .

وفى المساء رست البواخر وظهرت الاضواء على الشاطىء . فنزل الخديوى وحاشيته الى البر حيث سبقته الوزارة الى السرادق الكبير الذى أقيم للتشريفة . واستقبل الخديوى رجال الدين وكبار الموظفين والباشوات والبكوات والمشايخ . وجلس اليهم يحدثهم . وكانوا يجيبون على أسئلته بأصوات خافتة كأنها آتية من مدى بعيد ولما غادرنا السرادق كانت

صفحة النيل قد امتلات بالقوارب الصغيرة على صفحات الماء الهادىء . ولا يزال أهالى الصعيد متمسكين بخرافة قديمة وهي أنه اذا وجد طفل على ضفاف النيل بالليل اخذه أبوه فى سفينة شراعية وصرخ بأعلى صوته فى سكون الليل وهدوئه قائلا : « ولد اليوم طفل فما عسى أن يكون اسمه » ويصل صوته الى الأغوار القريبة . وقد يكون بعض الناس مستيقظا فى تلك الساعة . فيرد عليه باسم يذكره . ويكون الفضل فى تسمية المولود بهذا الاسم راجعا الى الليل والنيل وصوت المجهول .

وقد تساءل الكثيرون عنى . ولكن لم يجرؤ أحد أن يجاهر بسؤاله بالقرب من الخديوى . ورأتنى ابنة الدوق أوف كنوت من ظهر المركب فسألت طورنسين باشا عن ذلك التركى الجميل . فأدخل هذا على نفسى الزهو شأن كل رجل يعرف أنه أعجب سيدة من الطبقات العالية . ولم أجد مانعا من النظر الى الباخرة الأخرى .. فالسكرتير انسان على كل حال . والأميرات كن جميلات .

واستقبل الخديوى أحد وزرائه على الباخرة وطال بينهما الحديث وكنت لا أزال واقفة أمام الخديوى واضعة يدى على بطنى . وفجأة نظر الى الخديوى وقال : « ألم يتعب من حب بعد ؟ » فجمدت فى مكانى واصبت بالعمى والصمم والبكم دفعة واحدة . لأنى رأيت الاستنكار الشديد قد ظهر على وجه الوزير . واصبحت سمعة الخديوى موقوفة على ما يدور على وجهى . ولكنى استجمعت كل ارادتى وحكمت نفسى فلم يظهر على وجهى شيء . وعاد الخديوى الى حديثه وقد بقى سؤاله

بغير جواب . كأنما وجه الى الفضاء . وما زلت آمل في أن يكون الوزير ثقيل السمع .

وفي ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ وضع الخديوى الحجر الختامي في بناء سد النيل . وكان قد مضى عليه ثمانية عشر عاما في الحكم . ولم يكن بين الخلائق المجتمعة وجه ظهر عليه الحب والاخلاص للنيل وواديه مثل وجه الخديوى . فانه لم يكن في موقفه الخديوى الحاكم . وانما كان فلاحا يحب الارض ويجيد العناية بها . حتى أصبح من أشهر مزارعي القطر المصرى . وتنتج أرضه أحسن المحاصيل . وكثيرا ما كان يشترى أرضا يظنها الناس جرداء لا خير فيها . فلا تمضي سنوات قليلة حتى تصبح هذه الأرض القاحلة أرضا طيبة تنبت الفاكهة والزرع . فكان الخديوى أكثر الموجودين اتصالا بذلك السد الذى جاء لافتتاحه . والذى نقش عليه اسم الخديوى من ذهب .

لماذا تنكرت بملابس ممرضة ؟

وكيف كان الخديوى السابق يقود يخت « المحروسة » بنفسه ؟

وصل الى تلغراف جفرى من الخديوى يطلب الى فيه ان أعود الى القاهرة متنكرة . فجلست أفكر . وبعد أن دخنت السيجارة العاشرة كنت قد انتهيت من وضع الخطة — وليس هناك شيء أعجز عن تنفيذه — وبعد ساعة كنت عند البارونة « آيور » رئيسة جمعية الصليب الأحمر . ورجوتها أن تعطيني جوازا كممرضة من

ممرضات الصليب الأحمر . وأن تسمح لمرضة حقيقية أن تصحبني في رحلتي .

وبالرغم من دهشة البارونة لطلبي هذا شعرت أن هنالك جوا من التفاهم يسود بيني وبينها ، والعقل والتفكير يتغلبان على أعقد الأمور التي قد تبدو مستحيلة لأول وهلة . ثم كلمنا الأستاذ « فرشق » ورجوناه في آن يحضر الينا . ثم جلسنا ثلاثتنا نتشاور ونتبادل الآراء . ولما عدت الى الفندق كانت الخيـــاطة تعد لي ملابس ممرضة .

واشترت الرئيسة تذكرتي السفر . كما انها حجزت مكاني في الباخرة واستطاعت هي والأستاذ أن يحصـــلا لي على جواز سفر باسم « الأخت صوفيا » ولكن ملابس الممرضات كانت متعبة جدا . فالقماش الخشن كان يحك جلدي فيؤلمني . وفضلا عن ذلك لابد أن ألبس شعرا مستعارا لأن الممرضات لا يتبعن « الموضة » في قص الشعر . ولما كنت غير متعودة على الشعر الطويل فاني كنت أجهل آداب اســــــتعمال « الباروكة » والضـــفيرة المستعارة .

وأعدت خادمتي « هارملين » حوائجي من أحذية بلا كعب ، وملابس من (الدبلان) وشرابات قطنية ، فلم أطق النظر الى هذه (التشكيلة) المخيفة .. ثم نشبت بيني وبينها معركة شديدة من أجل الكولونيا والروائح العطرية . وملابس النوم الحريرية .. وانتهت المعـــركة بانتصار باهر لي . فأخذت هذه الأشياء معي ، بعد أن وعدت وعدا مؤكدا بأن أستعمل الحيطة والحذر في فتح حقيبتي ، ثم أرسل تلغراف جفري الى الخديوي بيوم الوصول ، واني لأحسد خادمتي على سفرها بحقائبي

الكثيرة المملوءة بالملابس النفيسة ، بينما أسافر انا كممرضة فقيرة « غلبانة » .

وقالت لي الرئيسة . لا ترفعي رأسك يا صاحبة السمو . واخفضي من جناحك قليلا . فلما فعلت قالت : هذا حسن . لقد أصبحت الآن أختا صالحة . ثم قدمت لي رفيقتي في السفر .

لم يكن يعلم بتنقلي احد غير الرئيسة والأستاذ والأخت الزميلة . حتى الخياطة كانت تظن ان الملابس لممرضة حقيقية . ثم حملت كل منا حقيبتها بيدها وذهبنا الى المحطة . ومعنا الأم الرئيسة واتخذنا مقاعدنا في الدرجة الثانية . ولما آذن القطار بالرحيل همست الرئيسة في أذني بأنه لا مناص من أن أنحني على يدها فأقبلها — وان كان يؤلمها ذلك — أو على الأقل اتظاهر بأني أقبلها لكي لا ألفت الأنظار . على انه في الواقع لم يكن يؤلمني أن أقبل يد تلك الأم الصالحة ، فان تكن أختي قد قبلتها عن خضوع وذلة . فقد قبلتها انا عن احترام واكبار ، ثم تحرك القطار يقل اختين ممرضتين الى كريستا ، ومنها الى الاسكندرية لتقوما بتمريض سيدة محسنة عجوز .

وفي عربة القطار بدأت (المصيبة) فاني — بكل بساطة — وبدافع العادة اخرجت علبة السجاير فنظرت الى أختي بذعر وظهرت عليها دلائل الاغماء ونظرت الى السيجارة كما لو كانت قبلة وتوسلت الى الا أدخن . ولم يكن هناك أثقل على نفسي من اجابة هذا النداء — واتباع العقل قد يكون ثقيلا في بعض الاحيان — ثم تنبهت فجأة الى اننا لم نحجز محال في عربة النوم . ولكن الأخت (هلدجارد) أفهمتني ان هذا لا يتفق مع تعاليم الممرضات ،

فلا يسمح لهن بالسفر فى عربات النوم الا اذا كان معهن مريض . فنمت ليلتى فى مكانى . وكان رأسى اذا مال اختل نظام وضع الضفيرة المستعارة ومالت « الباروكة » وأصبح منظرى مضحكا ــ الله !! ــ متى تنتهى هذه الليلة ؟

وفى صباح اليوم التالى وصلنا الى تريستا ، فأردت أن أبرهن لزميلتى على اننى أحسن الرحيل فأخذتها الى أحسن فندق فى المدينة وانتقيت أحسن الفرف فأثرت بذلك الشكوك حول شخصنا ووظيفتنا ، وبعد الحمام طلبت افطارا فاخرا . واقبلت على السجاير بشهية عظيمة ، لأعوض ما فاتنى منها فى القطار،وكان الجرسون الذى يقوم على خدمتنا يبتسم لنا ابتسامة غريبة وقحة. ولكنى لم أكن أعبأ بذلك .

وفى الباخرة خصصت لنا كابينة بسريرين فى الدرجة الثانية ــ الحمد لله ــ أخيرا أصبحنا بمفردنا .

كانت الرحلة جميلة . وكان طبيب الباخرة يجلس معنا فى الأكل . وسألنا عن وجهة سفرنا . فتركت الاجابة لأختى « المتمرنة » لأن صوتها كان عديم اللهجة خافتا تشتم منه رائحة المستشفيات . وجلست الى جانبى سيدة قصت على تاريخ زواجها المحزن . واختتمت قصتها قائلة (انت تفهمين أيتها الأخت) .

نعم ، ان هذه الأخت تفهم كل شىء ولكن لا يعنيها سماع هذه التفاصيل التى تخص طبيب النساء دون غيره .

كنت أطيل المكث فى « الكابينة » بقدر المستطاع اذ كنت أستطيع التمتع بلذة التدخين وأتخلص من الشعر المستعار .

ما أسمج هذا الشعر الغريب الجامد ـ كأنما ألشعر القصير طعن في كفاءة المرضة ـ وكنت آخذ الحمام كل صباح فاسر جدا لوجود ماء الكولونيا معى .

وفى برنديزى وقف كل الركاب على ظهـــر الباخرة للتفتيش على الجوازات . فاضطربت الأخت هلدجارد. فوقف كل منا يحمل جوازه بيده . وقد تلطف النـاس معنا بنوع خاص ، لأننا ممرضات نخدم الانسانية . ثم أعلن ان الجوازات صحيحة . وكان هذا هو كل ما رأيناه من الحرب التركية البلغارية .

وفى الليل سمعنا طرقا على بابنا . فقد مرض احد الركاب ويحتاج الى تمريض ، ولما كان هذا ليس من اختصاصى فقد قامت الأخت هلدجارد لتأدية وظيفتها ، أما أنا فانى أدرت نفسى على الجانب الآخر لأستمر فى النوم . وقبل أن أنام رأيت الضفيرة المستعارة تهتز فى مكانها المعلقة فيه كأنها الثعبان .

وفى اليوم التالى كان الخديوى موضوع الحديث على مائدة الغداء . وكان الحديث فى مبدئه عاما ، ثم أخذ يتدرج من الكلام عن الخديوى الحاكم الى الـكلام عن الخديوى الرجل ، فظهر الانتباه على وجهى لدرجة أن الأخت هلدجارد كاد يغمى عليهـــا خوف الافتضاح . فأخذت تغمزنى بحذائها الثقيل من تحت الطاولة . وكان الطبيب ضد الخديوى . فاحمر وجهى واضطربت عيناى، ولكنى تمالكت نفسى وسكت .

وقص الطبيب ان الخـــديوى ســـافر مرة الى القسطنطينية على باخرة رومانية . وكان الجو عاصفا والبحر رديئا . فجزع الخديوى وخاف خوفا شديدا . فكانوا يهدئونه ما بين آونة وأخرى .

يا للـكذاب ... !!

أما العاصفة فانها حقيقية . وقد كنت معه فى هذه الرحلة . ولكنى لم أر شيئا من ذلك الخـــوف الذى يتحدث عنه الـكذاب .

لقد كان الخديوى أكثر مرانا على البحر من احسن قبطان . وكم من عاصفة اجتازها بيخته المحروسة . وقد تولى القيادة بنفسه . وظل طول الليل ساهرا يعطى الأوامر لرجاله وسط ضباب كثيف . وموج كالجبال ، وكان الخديوى اذا عب عباب البحر واصطخب موجه لا يفكر فى نفسه ولا فى حياته ، وانما يفكر فى المسئولية التى يحملها عن الآخرين الذين يقومون بخدمته .

بعد ذلك يأتى هذا الرجل ويخترع عليه الأقاصيص !! فـكنت احدث نفسى قائلة :

ــ انتظر ... سوف ارد لك كل هذا بمكيال اوفى ، سوف ألقى عليك درسا لن تنساه ، سوف اجعلك طول حياتك تكره قصص العواصف والأمواج ، سوف اجعلك تذكر الممرضات ذكرا لا يعتريه النسيان . ثم اعقبت هذا ــ فى سرى طبعا ــ ببعض الشتائم العربية ، لأن اللغة العربية واسعة المحصول فى هذا الباب .

***

ساءت حالة المريض الـــذى تمرضه هلدجارد ، ولم يعد ينقصنا الا الحجز فى الكورنتينة لـكى تتم المسرات، وكانت زميلتى على دراية بالحالات العصبية ، فكانت تكثر من تدليك جسمى بماء الكولونيا ــ الذى كسبته فى موقعة الفندق فى فينا ــ لأنها كانت تخشى ان يعرف امرى ونحن على ظهر الباخرة .

الحمد لله ، تحسنت صـــحة المريض ووصلنا الى

الاسكندرية ، وكان أول من غادر الباخرة ممرضتان من ممرضات الصليب الاحمر ، ثم اقلتنا العربة بسرعة الى مكان الحلاق « واشزرو » فسألتني زوجته : ماذا تريدين أيتها الأخت ؟ ولكن صوتي جعلها تتذكر ان لها عينين تؤديان وظيفة النظر — فذهبنا الى مسكنها واحضرت الملابس اللازمة وبعد ساعة كان اكسبريس القاهرة يقل سيدتين تركيتين يغطى وجهيهما قناع أسود — وانتهى عهد التمريض والممرضات — وما أسرع تحول النساء من حالة الى حالة . فقد اختفت امارات الاستكانة من وجه زميلتي وعادت سيدة مهذبة لها دراية بالعادات والآداب وكانت دائما تعقب كل كلمة من كلماتها بكلمة : « يا صاحبة السمو » .

ولما وصلنا الى القاهرة أمرت « العربجى » بان يذهب الى سراى عابدين فأطاع مدهوشا . ولما اكد اصل حتى أسرعت فى مماشي القصر يهرول أمامى خادم لينيه « الخادم الخاص فريدريك » الى حضورى . ولم يكد هذا يرانى حتى أسرع لأخبار الخديوى الذى جاء مسرعا للقائى . وحولت الأخت عينها عنا .

وكان الخديوى قد طلب قائمة بأسماء جميع ركاب الباخرة . ولكنه لم يستطع ان يتبين الاسم أو الشكل الذى تنكرت به . وبالرغم من ذلك ارسل الدكتور كاوتسكى بك لانتظار الباخرة التى حضرت عليها فلم يعرفني . وهذا دليل على أن تنكرى كان بالغا حد الاتقان .

وبالطبع أخبرت الخديوى بخبر الطبيب . فتوجه طورنسين باشا الى ادارة شركة اللويد النمسوية وانكر الطبيب اولا وقوع ذلك منه . فانه كان يعرف كل

بجلسائه على المائدة ــ لكنه نسي الممرضــات ولمــا اخبر بأن هناك ممرضة على استعداد لمواجهته ادرك الحقيقة وبلغنى انه كان يشك فعلا فى شخصيتى لكثرة الحمامات التى كنت آخذها ولرائحة الكولونيا التى كنت اتركهــا فى الحمام .

اما الممرضة الحقيقية فانها بعد أن أمضت عدة أسابيع فى ضيافتى فى قصر مسترد عزمت على الرحيل وجاءت تودعنى فى لباس الممرضات فسرنى جدا ان أرى هذا اللباس الخشن على جسدها هى ، وليس على جسدى أنا .

لماذا كانت تفضل الاقامة فى الآستانة ؟

على الاقامة فى قصور القاهرة بين مظاهر الهناء والنعيم ؟

وبماذا كانت تشعر أثناء رحلاتها فى القطار والفنادق ؟؟ القسطنطينية فى شهر رمضان

سنمضى صيف هذا العام بأكمله فى الآستانة بعد أن قررنا عدم القيام بالرحلة الأوربية السنوية ولم يسئنى هذا القرار لأنى أحب الآستانة حبا جما . وأشعر بأنى مرتبطة بهذا العمل برباط نفسانى شديد .

كنا بالآستانة بعيدين عن رسميات القصور فى مصر ، واذا استقبل الخديوى أحدا هنا فان هذا الاستقبال يكون خاليا من الصيغة الرسمية . بحيث يمكن اعتباره زيارة عادية بسيطة .

هنا كنت أشعر حقا بأننى متزوجة . وما أجمل هذا الشعور أحيانا !! فانه يكسب الأحلام لونا جميـــــــلا ثابتا .

هنا كان يملكنى اليقين بأنك زوجى وأنى زوجتك . واعتقد اننا فى هذا الجو . كنا نتبدل أناسا آخرين . حتى فى شعورنا الواحد قبل الآخر .

واعتقد ان حيـــــاتي كانت تتقلب بين اطوار ثلاثة مختلفة . واحد منها في القاهرة . مقر الحكم . والثاني اثناء الرحلات . والثالث في الآستانة .

أما في القاهرة فلم أكن أر فيك الا الخديوى فقط . حتى اثناء زيارتك لي في سراى مسترد . كنت لا أستطيع أن أنظر اليك نظرتي الى شيء خاص بي . ويكفي أن أرى العربة التي تنتظرك في الحديقة لأعلم ان زيارتك مرضية محدودة . وليس أدل على هذا من أنه توجد في سراى مسترد غرف لا نعرفها ولن تطأها قدماك .

كانت سراى مسترد ملكا لأحد الأغوات . فلمـــــا مات عادت الى الأملاك الخديوية ولم يسكنها احد قبلي . فلما خصصت اسكني أدخلت تغييرا كبيرا على بنيانها وأثاثها وتركيبها . وكونتها تكوينا جديدا يتفق مع ذوقي الخاص . فان تكن هذه السراى قد أصبحت بيتي . فانها لم تكن يوما من الأيام بيتا لنا .

وأما في الرحلات ـ مهما طالت مدتها ـ فاننا كنـــــا نلتقي قليلا ولمدة قصيرة . اذ كنا دائما نعيش في مكانين منعزلين ـ وان كانا متقاربين ـ سواء في الباخرة أو في القطار او في الفندق .

أما في القسطنطينية فحياتنا تختلف عن كل ما سبق . فقد قامت سراى شويكلي تحت أعيننا وعنايتنا معـــــا منذ كانت رسما على الورق . فدرسنا تفاصيلها قبل أن يقوم بنيانها . واشترينا بأيدينا كل ما يلزم لهـــــا من أقمشة وأثاث . كذلك الأشجار والورود والمزروعات كلها غرست وفقا لارادتنا ومهـــــدت الطرق حسب ما ارتأيناه . فالسراى كلها قامت حسب رغباتنا . ومن أجلنا . لا من أجلك وحـــــدك ولا من أجلي وحدي .

وكذلك الحال فى كشك « تشقتليك » حيث تمضى رمضان هذا العام . وقد أمرت أنت بعمل الطريق الذى يؤدى ما بين شويكلى وتشقتليك ورأيناه باعيننا يمهد حتى تم .

اذن فبيتنا الحقيقى « بيت كلينا » لا يوجد الا فى الآستانة .

قل أين نتناول الطعام اليوم ؟ افى شويكلى على شاطىء البحر فى « سلاملك » الحديقة أم فى السراى فى الشرفة الكبيرة ؟

بدأت الأنوار تضىء الواحد بعد الآخر . فكانت كأعين تنشر ضياءها على صفحة البسفور . وأخذت السفن تراقص أمواجه تحت ضوء القمر .

ما أكثر ما سألتنى « فيم تفكرين ؟ » ليتنى أستطيع ان أقول ذلك انه ليس تفكيرا . ولا اتصال له بالواقع . وانما هو شعور يرفرف بجناحيه ويطير فى واد متسع ليس له حدود ولا يعرف من مخبوئه الا شعاع أو خيال . أو فى محاولة لاخفاء حوادث تعاقبت عليها الأيام حتى كادت تفقد لون الحقيقة . ولم يعد يذكرها أحد الا كاشاعة لا تبرزها على حقيقتها . ولـــكن كلون باهت وصدى ضعيف لنغمة قديمة . متى تحين الساعة التى ارى فيها حقيقة اليوم تمتد أمام بصرى كواد ذى زرع نضج ثمره حتى لا يخيل الى ان هذه الحقيقة بجملتها أصبحت ملكا للماضى .

« ما أغربك !! .. » طالما سمعت منك هذه الجملة أيضا .

انى لأكتب الآن فى كشك تشقتليك . ثم أرسل بصرى من بين أشجار العنب الى الطريق الذى ستأتى

منه سيارتك — وكل مرة ارى فيها تلك السيارة تقطع الطريق الى القصر يخالجنى شك فى أن هذه السيارة آلية الى وانها ستقف أمام الكشك الذى انتظر فيه — فاضطر امام هذا الى تذكرة نفسى بأنك انت الجالس فى هذه السيارة — ومن الغريب ان نفسى ترى فى كل شىء أمرا عجبا !! حتى ولو كان من انشط الحوادث — وقد تقع أمور يمر عليها غيرى مر الكرام . بل قد لا يحسون بها . أما انا فانى ارى فيها سرا خفيا . فأوغل فى الحدس والتخمين . غير واجدة اساسا ثابتا ارتكز عليه .

واغلب ظنى ان كثرة البحث والتفكير هى التى ولدت فى نفسى حب الاستقصاء . فغيرى لا يعنون بالبحث ومنهم من عميت بصائرهم فتوهموا انهم قد وقفوا على الحقائق !!

الله !! .. ما هذا الجوع الذى اشعر به ؟

حقا !! انه رمضان !! وهاأنذا أسمع الحراس يتهامسون مع بعضهم البعض ويقولون انه باق نصف ساعة .

ومعنى هذا ان الشمس ستغرب بعد نصف ساعة — أى ان المعدة ستسكن بعد هذا الوقت أيضا — فوضعت اذ ذاك الى جانبى سيجارة كبيرة . فانها ستكون أول ما أبدأ به .

ها هى السيارة تسرع فى طريق القصر . وفى هذه المرة أجد نفسى واثقة من انك فيها . ولست أدرى لماذا يخفق قلبى بهذه الشدة ؟ أمن الفرح ؟ أم الجوع ؟

ثم ابدأ اليوم بالسيجارة لأن السائق كان أسرع من المعتاد والأكل فى رمضان يختلف فى سائر الايام ـ فتعدد الألوان وكثرة الأوانى الصغيرة وفكرة ان الاكل الآن لا لأن الانسان جائع فقط . بل لأن الأكل غير مسموح به الا الى مطلع الفجر ـ كل هذه الأشياء غير مألوفة فى الاصل . وكذلك النوم يختلف فى رمضان عنه فى الأيام العادية . فالانسان ينام فى رمضان بسرعة ويظل نائما حتى موعد الطعام .

جلست الى مائدة صغيرة لنتناول السحور على ضوء الشموع . ثم شربت كاسا من الماء وتلوته بسيجارة . ثم امسكنا لنستقبل صيام يوم جديد .

لماذا حاول السلطان عبد الحميد
منع زوجة الخديوى السابق من السفر الى أوروبا ؟
وكيف كانت زوجة الخديوى تقضى شهر رمضان ؟؟

جاء اليوم الثانى من رمضان بزيارة غير متوقعة .

وعادة يحاول الانسان فى رمضان قتل الوقت لكى يمر سراعا لا لأنه يشعر بالجوع . فان تحديد مواعيد الأكل لتأخيرها عن مواعيدها كفيل بذلك . ولكن لأن النوم وحده لا يشبع البطون ـ ثم ان كثرة المحظورات . واشتغال الفكر . بأن هذا محرم وهذا ممنوع . يجعل الانسان يحس بفراغ ويشعر بقوة هذه المحرمات ـ فالممنوع متبوع .

كانت الأثاثات فى الردهة والصالون مغطاة بأغطية حريرية تسيل ألوانها كالماء ـ أظن اننى ظمآى ولا اريد الاعتراف بذلك . وما هى فائدة اعترافى بالحقيقة . واقرارى بالظمأ . ما دامت الشمس لا تزال فى كبد

السماء ؟ وكنت دائما أحدث تغييرا فى الأغطية وتبديلا فى الوسائد لكى أقتل نهار الصيام الطويل . وأثناء جلوسى فان الأقمشة والوسائد الجديدة سمعت صـــوتا ينادى بلهفة .

هانم أفندى .. هانم أفندى .

لابد أن يكون هناك أمر مهم . والا لمـا اجترأ هـذا الصوت على الارتفاع فى سكون الحريم — وفعلا كان هناك أمر مهم — فقد وقف الخديوى يتحدث مع أمير تركى فى الحديقة ويريه تنسيقها . ففهمت أن الخديوى انما اراد بذلك ان يمنحنا الوقت الكافى للانسحاب . فحملنا الأقمشة والوسائد وأسرعنا الى الدور الثانى . ولما دخل الخديوى وضيفه الى الصالون لم يكن فيه اثر — ولو بسيط — يدل على انه كانت هناك نساء فى الصالون منذ لحظة .

وكان الأمير قد خرج فى نزهة مع الخديوى . وفجأة ابدى رغبته فى زيارة الكشك غير عارف بأن الحريم يسكن فى الكشك أيضا — فقد كان يظن ان الحريم موجود فى سراى شيكلى . ولم يجد الخديوى بدا من اجابة رغبة الأمير فان العـادة كانت تحرم ذكر الحريم فى الحديث . فيتخطاه الانسان بالسـكوت . فليت شعرى لم هذا ؟ الأن قيمتنا ثمينة أم لأنه ليست لنا قيمة ؟؟

وشعر السلطان عبد الحميد — بصفته ظل الله عـلى الأرض — بأنه مكلف بأن يفهم الخديوى بأن سفرى معه الى أوروبا أمر لا يليق اطلاقا فأخذ الباديشاه يتكلم — على وجه العموم — بأنه لا يليق بالمرأة المسلمة ان تتبع العادات الافرنجية . ويستحسن الا تسـافر المرأة

المسلمة الى أوروبا . وغير ذلك من التعاليم الغالية .

وظن السلطان ان الخديوى يستمع الى نصائحه . ولكنه نسى ان لى كلمة فى الموضوع أيضا . وعندما قص الخديوى على هذا الحديث ذا المعانى الكثيرة . وكنت أقلب الملابس التى وردت لى من باريس خصيصا للرحلة ، فأعجبت بها أعجابا شديدا هذه المرة على الخصوص .

ما للسلطان ومالى ؟ لم يتعرض لحياتى ورحلاتى وأعمالى ؟ ما شأنه فى هذا ؟ لن أفكر لحظة واحدة فى التنازل ، وما كان الطف جوابك لى (أفعلى ما تريدين يا عزيزتى) .

ثم جاء يوم الرحيل ، وكان مقررا ان الخديوى بعد أن يستقبل زائريه الرسميين يذهب مع حاشيته الى محطة (جالاطة) لركوب قطار الشرق السريع ، وقبل موعد السفر بساعتين غادرت شويكلى فى زورق بخارى ، ولم يكد الزورق يتحرك حتى ظهرت سفينة ترقبنا عن بعد — جواسيس يلدز يثبتون وجودهم — ولكن علم الخديوى الذى كان يخفق على الزورق جعلهم لا حول لهم ولا قوة ، ثم أسدلت الستائر فى الغرفة الداخلية ونزعت ملابس الهوانم التى خرجت بها من شويكلى .

ولما وصل الزورق الى محطة « جالاطة » خرجت منه سيدة أوروبية ترتدى أحدث الأزياء الباريسية ، أسرعت الى القطار فاستقبلنى الكلب « بوللى » بفرح شديد وهو يثب حولى ، ولكنه دهش للقبعة التى لم يألف رؤيتها فأخذ « يشمشم » فيها مستغربا !!

ما اجمل أن تكون المرأة زوجة لخـــديوى مصر !!
وبخاصة عندما يقول : « افعلى ما تريدين يا عزيزتى » .

يبدو النهار فى رمضان طويلا جدا ، وذلك لأنه ينقصه ما اعتاده الانسان فى فترات الطعام والتدخين والتلهى . ويوم رمضان لهلون خاص نظرا لنزول الانسان فيه عن عادته التى اعتادها طول حياته ، فاليوم الاعتيادى ليس الا وقتا مقسما بين هذا وذاك ، ولكن يوم رمضان يوم مستقل ووحدة ثابتة تأخذ مجراها من مطلع الشمس الى مغربها ، والانسان عادة يحكم على وقته ويتصرف فيه فيقسمه حسب سبل معيشته ، أما يوم رمضان فانه يحكم نفسه بنفسه ، ولست أرى لنفسي مكانا فيه ، وليس لى الا أن انظر اليه واتبع مجراها حتى تغيب الشمس ، وعنـــدها فقط تستطيع عاداتى أن تطالب بحياتها ، ولكنها حياة تبدو كذكرى اكثر منها حياة ، فان الأشياء التى اعتادها الانسان أن يفعلها نهـــارا تحت أشعة الشمس تفقد رواءها فى الظلام ، فمثـــلا القهوة باللبن اذا شربت مساء فانها ــ رغم لذة طعمها ــ تنقصها بهجة الصباح ، وكذلك الأحلام التى يحملهـــا الانسان بعد غداء منتصف الليل تكون خالية من الرقة ــ فانها أكثر من أن تكون حلما ــ وكل هذه الأشياء تحدث « ضيقا » فى المزاج . فليس غريبا ان يكثر الطلاق فى رمضان عند من لا يضبطون انفسهم ، فـــان الجوع والعطش وعدم التدخين تجعل الواحد منهم سريع الغضب ، قليل الصبر . عديم التفكير . وكل هـــذا يقع على رأس المرأة المسكينة التى لا تستطيع أن تساعده بشىء فى هذا الموقف .

اما انا فكنت أرى فى رمضان مجهرا أرى به الناس

على حقيقتهم ، لا تخفيهم العادات وملابسات الوقت ، فهذه الإيضاحات الداخلية لا شأن لها بالفوارق الظاهرية ، وكلما أمعنت فيهسا النظر ازددت يقينا بوحدة الفرد .

ماذا يريد رمضان منى ؟ هل يريد ان ينبهنى ؟ هل يريد أن يثبت لى - بالجوع - أن تصميم حياتى ينقصه الأساس ؟ وانى لشدة تعلقى بالأمل يخيل الى أحيانا أن آمالى قد تحققت ، وهى لم تغادر بعد قرارة نفسى !! وهل أصبح اليوم الممل والمعدة الخالية عاملين قويين يستطيعان رفع الغشاوة عن العين فتصبح مبصرة ؟ أغلب ظنى ان رمضان هذا سيسلبنى عقلى !!

أيام الصيف طويلة تصبح الشمس فيها عدادا للساعات ليس الا ، وبين الفترة والفترة يطالب « كيف » الدخان بحقوقه ويضغط على العصب المتأثر بالتدخين فأسمع له فى رأسى صوتا أحد من صوت الطيور .

ليس فى نفسى استعداد للتجرد ، ولا أصلح الآن أكون من المتصوفات ، وأشعر جيدا أن حالتى بائسة ، مع اننى كنت فى غنى عن كل هذا ، ومن حسن حظى ينظر من وراء كتفى فيقرأ ما أكتب ، واو ان احد الجنود الواقفين أمام الكشك أطلع على ما أكتبه لاحتقرنى بكل تأكيد ، ولكنه - والحمد لله - فى الخارج وانا فى الداخل ، فهل يعلم عنى شيئا ؟ واذا رأى طرف غطاء رأسى وقف « زنهار » وادى التحية .

يالله !! ما أخون هذه الحياة .

وليس مزاج الخديوى اليوم على ما يرام ، فقد عنف (المكوجية) لأنهم يبطئون فى الكى ، وآمل الا يكون قد طرد (المكوجى) الذى يجيد كى (البلاسيه) ولست

ادرى كيف يستطيع خديوى أن يهتم بالغسيل ؟ وماذا اذا احتجنا الى شىء اخبرناه به فيحدد هو بنفسه الوقت والسيارة والسائق لاحضار هذا الشىء .

انه لمن السخف أن تمر كل صغيرة على الخديوى ، حتى اننا فى بعض الأحايين نخشى أن نخبره بتأخر بعض الطلبات خوفا من ان يغضب على المكلفين بأدائها فيخصم من مرتباتهم او يطردهم ، ولست ادرى كيف يتسع وقته وفكره للاشتغال بهذه الأشياء حتى أصبح خدمه غير قادرين على العمل برأى مستقل ، وهذه الظاهرة قوية فى نفسه ولا يمكن تحويله عنها ، فقد استخدمت مديرة للمنزل فى سراى شويلكى ، ولكنى لم ابلغ بهذا اكثر من اننى أضفت انسانا جديدا الى من يسألونه الرأى ، ولكن لا عجب فى ذلك فالسلطان عبد الحميد نفسه يهتم فى سرايه بكل شىء ، حتى الغسيل القديم يحظى باهتمام الخليفة والأوانى التى يشرب منها يختمها نفسه بخاتمه .

كيف نشأ العداء
بين الخديوى واللورد كرومر؟

جلس الخديوى على العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، ولم تكن الظروف حسنة ، فقد خلف ابوه توفيق باشا ، وكان حاكما ضعيفا ، من بعده جده اسماعيل باشا ، وكان حاكما صرفا كبير المطامع .

ولما تولى العرش لم يجد فى بداية حكمه تعضيدا كافيا ، فان اللورد كرومر لم يكلف نفسه عناء الاتصال بنفسية ذلك الخديوى الصغير ، فان السياسة الحجرية لا تعرف معنى العواطف والشعور ، فكان اللورد كرومر لا ينظر الى الخديوى الا كرئيس عنيد الرأى ، وربيب له غير محبوب منه ، لأنه كان مضطرا لمخاطبته بلقب « يا صاحب السمو » وهو يعلم ان الخديوى ليس له من الأمر الا هذا اللقب ، على حين انه كان يشعر بانه هو الحاكم الحقيقى وكان هذا كافيا لأن ينظر اللورد الى الخديوى كدمية يجب عليها الطاعة ، ولكن الطاعة كانت غريبة على خلق الخديوى منذ الصغر ، وكان قوى العزم عنيد الرأى ، وفوق ذلك كان محبا للكفاح ، ولعل

هذا الخلق تولد في نفسه عندما شعر بالمسئولية الملقاة على عاتقه والتي كان في امكانه الاضطلاع بها دون أن يضطر الى الوقوف موقف الدفاع أمام هذا العدو القوى الذى كان في امكانه ان يذله كحاكم وانسان .

وليس من المعقول ان خديويا ـ ولو كان نصف وطنى فقط ـ يتقبل صداقة ديكتاتور أرغم على قبوله من قوه معادية ، وكل نظرة اليه تذكره بضعف بلاده وهزيمة أسلافه ، فكان أصعب وقت مر على الخديوى هـو الوقت الذى امتد فيه ظل كرومر في مصر ، فانه كان يعامل الخديوى باعتبار انه في الثامنة عشرة غير عابىء بحدته ولا احتجاجه .

ولما حضر السير الدون غورست تنفس الخديوى فقد كان ـ غورست ـ رجـلا لينا لطيفـا على الرغم من السياسة . ولو أن غورست كان في مصر عندما جلس عباس الثانى على العرش لكان ذلك أصلح لتطـور اخلاق الخديوى ، فانى أتهم اللورد كرومر بانه السبب في بعض خبث الخديوى .

كان غورست هو الشخص الوحيد الذى اخلص له الخديوى في الود وتعلق به تعلقا شديدا مقرونا ـ كحاكم وكرجل ـ وعندما كنا في لندن وبلغ الخديوى ان المرض اشتد على السير غورست وهو في بيته الريفى ، أسرع الى عيادته في الحال ، ولما عاد كان في حالة حزن شديده لم أعهدها عليه من قبل ، ثم قال « لقد تحدثنا ... ثم صلينا .. » فكان للجميع في الصلاة معنى ساميا ، فقد تجلت فيها الرابطة الانسانية بين الرجلين . تلك الرابطة التى ألفت بين المسـلم والمسيحى ، بين السياسى الانجليزى والحاكم المصرى ، فجعلتـه ينسى كل شيء

ويشترك مع صديقه في صلاته وهو على سرير الموت .

كان الخديوى يحب بلاده حبا اكيدا ، ويتعلق بأرض مصر تعلقا شديداً ، فكان يرعى أرضه بصبر وجلد ، وهي تنمو عاما بعد عام تحت اشرافه الشخصي ، فقد كان من دأبه الا يعتمد على اقوال غيره ولا يصدق الا ما تراه عيناه ، وليس قطر المنتزه الا نتيجة مجهودات سنين متتالية أحالت أرض البحر الرملية الى حدائق غناء تنبت الزهر والفاكهة . وتغلب الخديوى على كل الصعوبات القائمة وانشأ للقصر مرفأ جميلا عميقا له رصيف من الحجر الصلد ، وكثيرا ما كنا نركب العربة الصغيرة للنزهة في حديقة القصر وعلى شاطىء البحر فتستقبلنا الزهور بأريجها الطيب والوانها الزاهية ، فان الطبيعة اسرفت هنا في جمال الألوان وطيب الأريج ، فانما اتفق البر والبحر على أن يكونا فنا من الجمال .

وكانت آثار الخديوى تظهر على كل ما تتعهده يده ، سواء في القصور أو التفاتيش او المزارع . فتفتيش ادفينا وتفتيش الاسماعيلية ، كلها كانت اراضي جرداء فأصبحت مثمرة تدر الخير عليه وعلى الفلاحين القاطنين في تلك النواحي .

وكان الخديوى يزهو بنمو ثروته ، وقد اخذ عليه البعض انه يستغل مركزه لمصلحته الخاصة وانه كان تاجرا ، على ان الخديوى لم يكنز ثروته في الصناديق ، او يودعها البنوك كشأن امراء الشرق بل كان ينزل بثروته الى السوق فتستفيد من ورائه انفس كثيرة .

ومن المدهش أن ما يحتسب لسائر التجار كحسنات يحتسب للخديوى كسيئات ، والواقع ان الخديوى كان

تاجرا اكثر من التجار ، يزن الاشياء بمقدار ما تدره من الارباح ، فكانت ميناء المنتزه مؤجرة الى احد الصيادين الذى كان يبيعنا ما يلزمنا من « الجنبرى » وما يلزم للسراى من الفاكهة كنا ناخذها من متعهد آخر ، واثناء سفرنا كانت كل الزهور والرياحين تباع ، وكل ذلك من اجل الكسب ، والكسب متبوع بالاقتصاد والتوفير فى الغالب ، ولكن الاقتصاد مذموم فى الملوك بقدر ما هو ممدوح فى الأفراد ، وكان فى الملابس اذا تقطعت بطائنها لا ترمى ولا تهمل ، بل تعمل لها بطانة جديدة .

ولما كان الخديوى لا يكسب الا مبالغ جسيمة ولا ينفق القرش الا فى موضعه فانه كان لا يعلم كيف اننى أشترى زهورا بخمسة فرنكات وحجته فى ذلك ان الزهور مصيرها الى الذبول ، ومع ذلك فان زهرة واحدة كانت تهدى اليه تجعله يدفع فاتورة حساب كبيرة على الفور ، فقد كانت من عادة صاحبة مخزن الموضة الذى أتردد عليه فى باريس أن تهدى الى كل منا زهرة جميلة بمجرد وصولنا ، وفى هذه الأثناء تعرض على أحدث أزياء القبعات لانتقى منها على الأقل « دستة » لأستعملها اثناء رحلتى فى أوروبا ، وكان الخديوى لا ينظر كثيرا الى المجموع الكلى ، على حين انه كان يدقق فى المفردات ، فمثلا لا يهمه أن يدفع مائة الف فرنك ثمن ملابس لى ، ولكنه اذا قرأ فى الفاتورة ان أحد الفساتين يساوى ٨٧٥ فرنكا فانه يرى ان هذه الفرنكات زيادة عن اللزوم ، ولهذا كان الموردون يضعون الاثمان دائما بالأرقام الصغيرة فلا يرى الخديوى فيها شيئا ، وكان الماء لا يتسرب من بين أصابعه فكان يقول لى « اننى

أعرف كيف احافظ على المال » ولعل فى هذا كثيرا من الحقيقة ، فاننى على عكسه لا أستطيع منع المـــاء من التسرب من بين أصابعى .

كان الخديوى فى بداية كل عام يضع ميزانية لمشروعاته المعمارية فى القاهرة ، فانه كان ينشىء فى كل عام عمارة ، حتى أصبح يملك احيـــاء بأكملها ، وكنا فى المساء نخرج متنكرين للاشراف على ما تم من البناء وكان الخديوى يصعد (السقايل) ويتنقل فوقها بخفة مدهشة، وكان اذا مر على عمارة أخرى أدرك عيوبها على الفور ، وكانت ملاحظاته دائما فى محلها .

وعندما انشا ســكة حديد مريوط اختلف المهندسون على تصميم احد الكبارى ، واخيرا اقروا جميعا التصميم الذى وضعه الخديوى بنفسه ، وقد عد الناس اقدامه على انشاء هذا الخط ضربا من الخرق ولكنه كان ابعد نظرا منهم واحصف رايا .

وقد كسب الخــديوى قلوب العربان بانشاء هــذا الخط ، فكانوا لا يتحــدثون الا باعتبار انهــا سكتهم الحديدية .

ولم لا ؟! أليست تقوم على (أرضهم) ؟

كان عباس حلمى اول خديوى خضع له العربان بلا قيد ولا شرط ولما ذهبنا لافتتاح خط مريوط وتناولنا القهوة عند شيخ العربان كان يبدو على الرجل ما يشعر بأنه يرى نفسه قريبا للخديوى وندا له رغم ما كان يبديه نحو شخص الخديوى من الاحترام .

ولم يحدث ان أحدا من العربان اخل بثقة الخديوى فيه الا مرة واحدة ، اذ كنا نقوم برحلة فى الصحراء ،

كانت الخيام اللازمة للمبيت ترسل قبلنا بيوم لكى تكون معدة عند وصولنا ، وكنا ـ انا والخديوى ـ نركب سيارة ومعنا سائقان ويتقدمنا دليل عربى على جمل .

وسارت الرحلة ببطء واستقبلتنا الصحراء باسرارها وجلالها وأصبح الطريق لا يزيد الا عن بحر من الرمال مترامى الأطراف ويهيىء الرأى للعين ان كل شىء على مقربة منها .

ومالت الشمس ولم نصل الى خيامنا ، فأوقفنا السيارة وتكلم الخديوى مع الاعرابى ، ولكن الأخير أكد انه لم يضل الطريق ، ولم يظهر على وجهه الاسمر اثر ما ، فتتبعناه من جديد ثم حل الظلام واذا بالدليل والدابة يختفيان فجأة كانما ابتلعتهما الأرض او طواهما ظلام الليل ، وتابعنا رحلتنا على ضوء النجوم . فيا ترى هل تعطلت غريزة الاعرابى لأنه يقود آلة ولا يقود حيوانا ، أم انه فقد قياد جمله الذى رأى فى السيارة منافسا له فى الصحراء ، فكره صحبتها !؟

ومضت ساعتان ونحن لا نزال فى الطريق لا ندرى انسير الى الامام أو الى الخلف . ثم تولى الخديوى سياقة السيارة بنفسه ، وجلست الى جانبه فشعرت بالطمأنينة ، وجعلنا نهتدى بالنجوم وأخيرا راينا أضواء وسمعنا أصواتا ، واذا بنا أمام فصيلة من الجند تهيأت للبحث عن الخديوى ، ثم وصلنا الى الخيام .

ومع اننا لم نقف فعلا فى الصحراء ـ فانه ليس من السهل أن يترك الخديوى يضل فى الصحراء ولكننا تذوقنا مقدما طعم آلام الصحراء ولم يكد يختفى الدليل حتى اتجهت أنظارنا جميعا الى وعاء الماء الذى له القول

الفصل في الحياة أو الموت بين هذه الرمال .

وعندما أذكر هذه الحادثة الآن أشــــعر بجفاف في حلقي ، وكأنه جفاف رمضان ، فقد تنقلت بفكري بين غرف القصور ورمال الصحراء والشمس لا تزال باقية لم تغرب بعد .

ومن يدري بماذا أشعر عندما اعيد القراءة فيما أكتبه الآن في « تشنتلتك » ؟ لا شك انى سأشعر بالجــــوع والعطش ، ولكن ربما شعرت بالشوق أيضا .

لماذا كانت الاميرة تتمنى أن تكون رجلا صديقا للخديوي وليست زوجته!

كانت كل الحيوانات التى تهدى الى الخديوى ترسل دائما الى سراى مسترد . وفى مرة أهداه شريف مكة كلبين عربيين من كلاب الصيد فى الصحراء وأرسل معهما بدويا لكى يعطى التعليمات اللازمة عن أكلهما وشرابهما وهو بلح بنوائه وشرابهما اللبن ، وقد أخذتهما معى فى السيارة من القبة الى مسترد ، فكنت طول الطريق جالسة بين خطرين وكنت قد أمرت باخلاء غرفة فى مسترد لأجل الكلبين . ولكنهم نسوا أن يخرجوا منها دولابا عاليا كان فيها ، فكان الكلبان لا يفترقان عن هذا الدولاب فى الأيام الأولى ، ولكنهما بالتدريج اصبحا أليفين على انهما لم ينزلا عن عادة الصحراء فكانا لا يذوقان اللحم ، واذا قدم لهما بلح خال من النوى فانهما لا يقربانه ، وكانتا يتراجعان أمام منظر الماء ولم نستطع أبدا اقراءهما على شربه .

ولما عاد الخديوى من الحج احضر لى ببغاء اشتراها من أحد الحجاج ، وكان اسمها « الحاجة فاطمة » وكانت آية فى الجمال ، وقد اختلط الأبيض والأحمر فى حرير

ريشها ، ونظرا لحياتها البدوية وسكنى الخيام تعودت الحاجة فاطمة على الحذر واليقظة والصياح عند أقل حركة ولما ملأت سراى القبة صياحا احضرتها الى سراى مسترد ، حيث افردت لها غرفة مستقلة ، وكانت حينما تطير فى الصالة يضع الخدم فوق رءوسهم مظلات حمراء عند اختراق الصالة، وذلك لأنه كان من عادة الحاجة فاطمة أن تقع على رأس الانسان وتحاول أن تكشف بمنقارها عما تحت الجمجمة ، وكانت هى الطائر الوحيد الذى لم يخضع لارادة الخديوى ، بينما كانت جميع الحيوانات تخضع للخديوى بمجرد النظر ، كانت هذه الببغاء تثور وتصيح عند رؤيته ، ولعل السبب فى ذلك راجع الى لون طربوشه الأحمر الفاتح ولما كان طربوش السلطان أغمق لونا وكان عظمته يحب الطيور ، فان الحاجة فاطمة سافرت على ظهر المحروسة لتكمل مجموعة السلطان عبد الحميد وتملأ يلدز بصياحها .

وفى الواقع كان خضوع الحيوانات للخديوى مدهشا، حتى كنت استعمل مختلف الطرق واستغرق الوقت الطويل لكى أروض الحيوان الذى كان الخديوى يخضعه بنظراته فقط ، فالجواد الذى يستعصى ركوبه كان يسلس قياده للخديوى ، وكان الكلب « أورسى » اذا راى سجادة الصلاة مفروشة فانه يسير بخضوع حولها فى قدس كبير ، وكان الخديوى يقول لى « ان الكلاب تضحك منك يا عزيزتى ... » فلم أكن اتألم لهذه الكلمة فانه لا يسيئنى ان تضحك منى الحيوانات ، ومع ذلك فان « أورسى » عندما لدغته عقرب فى موضع حساس من جسمه ، وقطع الطبيب الأمل فى شفائه جاءوا به الى

مسترد فما زلت به حتى شفى ، ولست أعتقد انه كان يضحك منى فى هذه المرة .

***

لم يكن لعباس الثانى أصدقاء بمعنى الكلمة . فرفاق الصبا اصبحوا باورانا أو تشريفاتية فقط ، وأما صداقة الماضى فلا ذكر لهـا ، وعلى العموم فان التاج يفصل بين الملوك وبين الماضى ، والحكام يعيشون دائما فى دائرة منعزلة . فلا هم بقادرين على النزول عن مستواهم ولا أفراد الشعب بقادرين على النظر اليهم الا باعتبار انهم حكام . ومنذ عرفت عباس الثانى وددت أن أكون رجلا لكى أصبح صديقا نخلص له باعتبـاره صديقا لا سيدا ، بيد اننى لو كنت رجلا لما استطعت التعرف به .

انى لأرى من نافـذة الكشك شخصا يلتقط الزهور بعطف وحنان ينمان عن عاطفة رقيقة ، وهذا الرجل طويل القامة عريض المنكبين قوى العضلات يدل انطباق شفتيه الشديد على عزيمة حديدية .

هذا الرجل هو فخر الدين ، وهو منذ سنين الخادم الأمين للخديوى ، الذى يضحى بحياته ألف مرة فى سبيل سيده . ولهذا الرجل قصة غريبة ، فقد كان حديث الناس فى قوله ، وكان معروفا بأنه أقوى رجل فى هذه المدينة ، فكان الكل يخشـون بأسه ويتجنبون الاحتـكاك به ، على انه الى جانب ذلك كان مشهورا بالصدق والوفاء بالوعد ، فكانت كلمة واحدة منه تقوم مقام ألف قسم من غيره ، وكان يعيش مع زوجته وأولاده من قطعة أرض يزرعها بنفسه ، وكان يجيـد الرماية

للزوجة انه يستطيع ان يصيب طائرا فى الجو وان يعين موضع الاصابة .

وحدث أن فخر الدين هذا كان جالسا فى قهوة يعزف فيها موسيقيان ـ رجل وفتاة ـ وكانت الفتاة قد أعجبت فخر الدين ، والأمر ما أهان الموسيقى زميلته الفتاة ، فلم يرق هذا فى عين فخر الدين فتقدم الى الرجل وقال له : « انك تستحق الموت من أجل هذه الاهانة ، ولكنى سأمنحك فرصة تحاول فيها خلاص نفسك ، فان استطعت أن تعزف على ظهر الكمنجة لحنا تسمعه اذناى فانت ناج ، والا فالموت لك » .

ولم يستطع احد ان يتدخل بين الرجلين ، ووقف فخر الدين والمسدس فى يده ، وكان طبيعيا ان الخشب لا يعطى لحنا ، وفى الحال خرجت الرصاصة من المسدس فاصابت ما بين عينى الرجل ، وذهب فخر الدين الى بيته وجاء وراءه البوليس يريد القبض عليه ، ولكنه أبى أن يخرج مقبوضا عليه ، وقال لرجال البوليس : « اذهبوا وساحضر بنفسى . . » .

ولما كان رجال البوليس يعرفون ان الرجل لا يكذب فانهم تركوه ، وفعلا ذهب الرجل بنفسه الى قسم البوليس ، فلما فتحوا له باب السجن نظر اليهم بسخرية وقال : « لقد وعدتكم بان أسلم نفسى وها قد فعلت ، ولكنى أقسم لكم انى لن أمكث طويلا فى هذا السجن » .

وظن القوم ان فخر الدين سيحنث بيمينه لاول مرة ، ولكن لم يحن المساء حتى كان فخر الدين يقترب من يخت المحروسة فى قارب صغير ، فوثق به الخديوى لأول نظرة ، ومنذ ذلك الحين أصبح فخر الدين خادما

أمينا وتابعا مخلصا وحارسا خاصا للخديوى ، وكلما رست المحروسة فى ميناء قولة كانت عائلة فخر الدين تأتى اليه على ظهر اليخت وتقيم معه بأمر الخديوى حتى يوم الرحيل ، وفى هذه الاثنـــــاء يقف البوليس على الشاطىء فى انتظار الرجل .

وفى هذا العام كنا قد قررنا عدم الذهاب الى قولة ، فمن يدرى لماذا كان هذا الرجل يقطف الزهور بهـــــذا الحنان ؟

الا يمكن أن يكون مشتاقا لزوجته وأولاده ؟ لئن كان شوق هذا الرجل يساوى قوته ، فما كان اشد بأسه !!

ليست عندى صورة واحدة تروقنى عن نفسى رغم كثرة الصور التى عندى فانها جميعا تظهر وجهى كوجه الأطفال . واظن ذلك راجعا الى أن المصورين لا يجيدون التصوير لأنهم يتخذونه مهنة لا فنا ، ولعل أجمل صورة كان يمكن أن تمثلنى على حقيقتى هى التى حاول أحـد الأجانب التقاطها فتنبه اليه البوليس وصادر آلة الكوداك التى كانت معه . وانى لا أزال اذكر هذا الأجنبى الى الآن ، ولا انسى صورته ، فقد كان نحيلا بارز عظـام الوجه ، ساطع العينين جدا . مفرطا فى الطول ولولا غرابة منظره هذا لما تنبهت اليه ولا لاحظت انه يحاول التقاط صورتى .

كان ذلك أثناء حفلة المحمل فى ســاحة القلعة ، حيث ازدحمت الجماهير من كل الأجناس واصطفت الجنود فى الساحة وخصص مكان لنساء الوزراء والهيئــات السياسية يفصله عن الجماهير كردون العساكر ، ولمـا تـكامل عقد الجمع جاء الخديوى فى عربة تجرها أربعة من الجياد الصافنات ، ووقف على المكان المخصص له

ومن حوله الوزراء ورجال الدين ومشايخ الطـــــرق ثم جاء الجمل الذى يحمل كسوة الكعبة الشريفة يقوده احد المشايخ ، فلما حاذى الخـــديوى سلمه الشيخ طرف الكسوة فقبلها ووضعها على جبهته ثم اخذ بزمام الجمل وسلمه الى امير الحج .

وفى هذه اللحظة أزاحت النساء نقـــابهن وأطللن من العربات وكانت الموسيقى تصدح والنقـــود توزع على الجماهير ، فشعرت بنظر ذلك الأجنبى متجها الى ، وقد اقترب من المكان المحجوز وتخطى الكردون وكان فى لباس الضباط الانجليز . وبعد أن التقط الصورة قفل راجعا ولكن احـــد الضباط المصريين تنبه فأخـــذ منه آلة الـكوداك .

ويظهر ان هذه الحادثة لم تفت عين الخديوى ، فانى لم اكد أصل الى السراى حتى رايت آلة الـكوداك على المكتب فجعلت امنى نفسي بصورة جميلة ، ولكن يا لضيعة الأمل ، لقد كانت صورة مشوهة لا تفترق عن أية صورة عادية لامرأة رفعت نقابها ، فكانت لا تساوى ما لاقاه الضابط من التوبيخ على فعلته وفوق ذلك ضياع الآلة الفوتوغرافية منه ، وعندما أعود الى القـــاهرة سوف اطلب أحد المصـــورين الى سراى مسترد لأخذ صورة تروقنى وربما فضلت أن تؤخذ صورتى وأنا اعزف على البيانو .

زيارات الخديوى لأوربا

كان الخديوى سريع الحركة لا يكلّ العملَ ولا يمله ، وكثيرا ما كان العملَ يمنعه من تناول الطعام فى مواعيده، وكان فى أوروبا يميلَ الى الاماكن المزدحمة بالناس ، ولعلَ ذلك ناشىء من حياة العزلة التى يحياها فى مصر ، حيث لا يخرج الا فى حرسه ، ويقف كردون العساكر بينه وبين الجمهور .

وكنا قبل البدء فى الرحلة نضع برنامجا دقيقا من البلدان التى سنزورها ومدة الاقامة فيها والاعمال التى تقوم بها ، ولكن هذا البرنامج كان لا ينفذ الا على الورق ، وكانت الحقيقة دائما تخالف التصميم ، وكانت الأعمال تزيد بكثير على المقرر ، وكانت باريس ميدان الحركة الدائمة فلا تكاد تمضى بضعة أيام على وجودنا فيها حتى تزدحم الغرف بالمشتريات التى كنا ننتقيها بانفسنا ، فكنا طول النهار ننتقل من متجر الى متجر لا نستريح الا لتناول الطعام ، فاذا حان المساء وعدنا متعبين الى الفندق وجدنا الصالون مزدحما بالمنتظرين من زوار وموردين بفواتير الحساب ورجالَ المعية بالمكاتبات ، فكان ينهى كلَ هذه الأمور بسرعة شديدة

ثم يرتدى بدلة السهرة ونذهب الى بعض الملاهى حيث كان يسر سرور الأطفال ،وبعد ذلك ننتقل الى ملهى « فورا » وهو أكبر ملاهى باريس وأكثرها ازدحاما ، فكان الخديوى يتأبط ذراعى ثم نندفع فى تيار الازدحام، وكنا نقف عند كل لعبة حتى يلتصق الفستان بجسمى من شدة العرق ولكى يجف العرق كنت اقف عند لعبه البيضاء العائمة حيث أخسر بضع مئات من الفرنكات .

وحدث مرة اننا تشاحنا تشاحن الأطفال وسط الملهى، وذلك أن الجهد كان قد نال منا واصبحت قدماى غير قادرتين على حملي وتصبب العرق من جسمى ، وكانت السيارة تنتظرنا فى الخارج ، ولكنى لم أستطع قطع المسافة اليها ، فكان على الخديوى أن يذهب ويحضر السيارة فلما عاد وجدنى راكبة فى « المرجيحة » وقد اعجبنى الهواء البارد الناشىء من دوران « المرجيحة » فجلست فيها لعدة أشواط ولم يكن معى نقود اطلاقا ، فكان الخديوى يدفع أجرة الأشواط وهو حانق ، واخيرا ركبنا السيارة ونحن غاضبان ، ولكننا لم نكد نصل الى الفندق حتى كان السرور قد عاد الينا .

وكان الخديوى يحب زيارة الأسواق والمعارض ودراسة الآلات وخصوصا القاطرات وكان يسوق القطار بمهارة فائقة ، وعندما زرنا لندن كان فى انتظارنا فى ووفر بعض المهندسين الانجليز ، وكانوا يعلمون ان الخديوى يسوق قطاره بنفسه ، ولهذا دعوه الى الاشتراك معهم فساق القطار من ووفر الى لندن ، وبالرغم من انه كان يلبس معطفا ونظارة فانه لم يسلم من سواد الفحم ، فلما نزل فى محطة لندن كان منظره موضع دهشة واستغراب من جميع مستقبليه .

ولم تكن حياتنا فى المصائف باهدأ منها فى باريس فأنها وان كانت تخلو من حركة المشتريات وكثره السهرات الا أنها حافلة بتعاليم الاستشفاء وأوامر الأطبـاء وكان الخديوى يستشفى غالبا فى « ديتور » بالقـــرب من جنيف ، وقد كان ذهاب الخديوى الى هذا المصيف سببا فى شهرته ، فكان يتوافد عليه الناس للاستشفاء ولرؤية الخديوى وكنت أرى كثيرا من المصريين ممن لا يستطيعون مقابلة الخديوى فى مصر يحومون حول « الفيللا » التى نسكنها .

وكان الخديوى ينفذ أوامر الأطباء بدقة تخلصا من الشحم الذى كان قد بدأ يظهر على جسمه ، وبعد الانتهاء من الاستشفاء هنا كنا نزور عدة مصايف اخرى ، وحدث فى « اكس ليبان » انى ـ بعد العشاء ـ أردت الدخول الى صالات اللعب ، وكان الخديوى لا يلعب أبدا ، لأنه كان يبغض المال المكسوب بلا تعب ، كما يكره أن يخسر المال بلا مبرر .

وفى صالة اللعب اتجهت كل الأنظار نحوى لا لأن حظى كان عاليا فى اللعب ، بل لأن مجوهراتى وملابسى اخذت بالابصار . واحمر وجه الخديوى وبدت عليه «العصبية» ولست ادرى سببا لذلك . فانه لم يكن من المعقول ان اقامر بجواهرى أو فستانى . واستقر راى الخـديوى على أن أعود الى الفندق فأنزع الحلى وأغير الملابس ، ولم يجد فى الاجتماع شيئا ، وعدت الى الفندق . ولما رجعت الى الصالة فى زى بسيط لم يلتفت الى احد وضاعت بذلك بهجة الليلة .

العلاقات الخاصة بين الخديوى وأمراء العائلة المالكة

وفى فيشى رأينا ارملتى اسماعيل باشا جالستين فى شرفة الفندق وعلى وجهيهما النقاب الأبيض وهما تدخنان وتستمعان الى نغمات الموسيقى .

كان لاسماعيل باشا اربع زوجات . وعلى عكس المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحناء بينهن ولا بغضاء ، وقد الف بينهن حبهن لرجل واحد .. هو اسماعيل .

كان اسماعيل قوى الشخصية ، شديد العزم . فاستطاع بذلك أن يجعل من أربع « ضرائر » اربع صديقات . بل استطاع اكثر من هذا فضم اليهن صديقة خامسة ، وهى امرأة تدله اسماعيل فى حبها .

كان اسماعيل اذا احب لم يترك لمحب بعده مجالا . واذا أهدى اغدق حتى اغرق ، واذا أراد البناء فانه يهدم حيا باكمله ليشيد عليه ما يريد ويستعمل آ... الأيدى فى البناء يعملون على ضوء الشمس نهارا وتـ... لهم المشاعل ليلا . وعلى هذا المنوال قامت سراى الجز... التى بناها خصيصا للأمبراطورة أوجينى لتكون لها م... اثناء زيارتها لمصر . ولو استطاع لاحال مصر كلها روضة غناء تخطر فيها هذه الملكة الجميلة .

ولما ابدت الامبراطورة رغبتها فى الطواف بالقاهرة على ظهر حمار رافقها الخديوى فى هذا الطواف ، ولما رجعنا من النزهة كان حريم اسماعيل على استعداد لاستقبال الامبراطورة ولم تشعر احداهن بغيرة أو حسد .

واثناء حكم عباس الثانى ، بعد موت اسماعيل باشا وتوفيق باشا . كانت هناك امراة كهلة فى ملابس سوداء تزور مصر سنويا وتبدأ مقامها فى القاهره بزيارة ارامل اسماعيل .

هذه المراة الكهلة كانت « أوجينى » امبراطورة فرنسا السابقة .

وقد احتفظت ارامل اسماعيل بعاداتهن حتى فى أوروبا، فكن دائما مقنعات ويأخذن الجوارى والأغوات معهن ، فاذا ركبن عربة جلس الأغا دائما الى جانب السائق .

وكان اسماعيل باشا يحب حفيده عباس حلمى حبا شديدا ويعطف عليه العطف كله ، ويوجد فى قصر القبة دولاب مقفل يحتوى على الأسلحة والهدايا التى يأخذها عباس من جده . ولما فتح الخديوى عباس هذا الدولاب وأرانى نفائس محتوياته أعطانى علبة كبريت ذهبية قال انها كانت هدية من الامبراطورة أوجينى الى جده . ولا تزال هذه العلبة امامى الآن . وعليها « مونجرام » ذلك الحاكم الكبير الذى كان يعرف معنى الحب .

ربما أسفت على أن رمضان ليس الا ثلاثين يوما ، وذلك لانى تعودت فيه الجلوس الى مكتبى وتدوين مذكراتى . وهذا مالا أستطيعه فى مسترد فهناك البيانو يغرينى بالعزف عليه ، ثم أننى هنا اشعر بالحرية أكثر من هناك ولا اخشى العيون على ما اكتب .

زوجة الخديوى السابق

لو كنت باشا ! ..

لو كنت باشا لتركت جميع الجــوارى فى قصرى عذارى حتى تنتهى حياتهن التعيسة ، ولا افهم مطلقــا كيف أن رجلا يملك قليلا من حسن الاختيار ورقــة الذوق يستطيع الاعتــداء على هــذه المخلوقات الذليلة المسكينة ، واذا فرضنا ان الشهوة الجسمانية المجردة لا ينقصها كثير من الشـــوق ، فان الشخص المحبوب يجب أن يفضـــل على آخر لا يرضى من الانســان الا الحواس فقط . واذا فرضنا أن المرأة المحبوبة ارادت أن تكون ذات سلطان على عواطفها ، فلا أقل من انهــا تجاذب الرجل عاطفة حبه . وحسبه هذا حتى لا يشعر باختلاف درجة العواطف اذ نبالغ عادة فى تقـــدير عواطفنا الذاتية وفى التمتع بها ولو بدت لنا من طريق غير مباشر كما هى الحال فى الحب الذى يرد الينا ، ولكن العواطف يسهل فيها الخـــداع والتمويه . أما الحاجيات المادية فلا ـــ ولو كنت باشا لاتبعت ذوق أسلافى ولما رضيت الاســـتمتاع بأشباه النساء التى يتوارثهن الأقرباء بعضهم عن بعض عن واللاتى ينظر اليهن كمتاع جامد لا حياة فيه .

ليست شهواتى من المسائل التافهة حتى اهمل على تسكينها بأساليب سبقني اليها غيرى . ويكاد يمليهـا على املاء ولو كان هذا الغير من أهلى وأقرب الناس الى ، كذلك يستحيل على أن أرضى بأن ينشأ نسلى وتشب ذريتى بين أحضان ساقتها الى الصدف ، فان الغرس القوى يجب أن يزرع فى أرض حرة .

لا أستطيع أن أفهم كيف تنازل سلاطين آل عثمان جميعهم عن الحرص على صفاء دمائهم واختاروا غير الراشدات أمهات لأولياء عهودهم وفلذات أكبادهم ، فليست هناك سلالة اختلطت بالدماء العربية مثـل العثمانيين ، اذ أمهات سلاطينهم جميعا من الشركسيات أو الكرديات أو الروميات أو البلغاريات أو الارمنيات دون التركيات . وفى مصر يكثر انتخاب الزوجات من الجوارى ، فان المطالب التى تطلبها الجارية ورغباتهـا فى الغالب تافهة قليلة اذ انهـا بطبيعتها جبلت على الرضا . فهى ترضع لأمر سيدها ، ولو لم تكن حرية المرأة من المسائل الطبيعية المألوفة لديهم فقد كانوا يقدرون المرأة الحرة قدرها ، وكان كل باشا يعرف جيدا أن المرأة المولودة من أبوين نبيلين لا تعد نفسها مساوية له . ولا يسمح له بالنظر اليها نظرته الى الجارية ، ولذلك انصرفت رغبة رجال الطبقة الارستقراطية للاقتران بالجوارى .

وبينما يمتاز حريم السلاطين فى الآستانة بما ورثته عن بيزنطة من مظاهر الأبهة والعظمة ، فان الحـريم المصرى الذى ينتمى الى اصل تركى لا يظهر عليه شىء من مجد الفراعنة .

وكثيرا ما أفكر فيما عسى أن يحدث لو ان الرجال

عرفوا ما تعرفه المرأة عن بنات جنسها ؟؟

لا شك اننا لم تكن نرى للحريم اثرا ، اذ يعرف الرجل انه دائما مخدوع وانه وحده تقع عليه المسئولية في فقر عاطفته وشعوره دون أن يحصل على شيء من الشهوات المادية يعادل هذا الفقر بل هو قد خسر الملذات كلها لأن الشهوة الجسمانية تحتاج ايضا الى العناية والقيمة .

انها تتطلب ضحايا كثيرة لتستطيع ان تحتفظ ببقائها اذ تعيش من الرغبات التى تتمناها والآمال التى تحوم حولها ، فهى تستعين بكل ما تصادفه من حرارة ، وما يلقاها من شرر متطاير ، تتلقف الأنغام والألوان والروائح وتنغمس في قرارات القلوب والأرواح . وتبحث فى نواحيها حتى تجد شوقا هائما تقدم له نارها وقودا ، كل ذلك ونبضات القلب اشد ما تكون يقظة وانتباها وبقاء ، واذا ما جمعت هذه العناصر المختلفة الألوان والأشكال نشرتها كما ينشر رداء ارجوانى بهيج اللون وتقدمت به هدية ومتعة الى من ينال الفوز والحظوة لديها ، ولو كنت باشا ما رضيت غير هذه الشهوة ، ولكن هذا النوع من الحسية المليئة بالحياة النضرة ، لا سبيل لتمويهه في محيط الحريم الخانق ، ومن المدهش ان التى خلقت لتكون متعة أصبحت وسيلة للقضاء على مزايا المرأة التى لا تستطيع أن تستعد بغير تنميتها .

ان منع المرأة من الاختلاط والسهر عليها بل وتقييدها ايضا لا يحط من كرامتها ولا يقضي على حرمتها ، لان الحرص والغيرة التى يظهرها الرجل فى ذلك تثبت لها حبه ، لقد تغلغل الفساد فى الحريم الشرقى من جميع النواحى ، وهو فى وسط لا يمكن أن يساعد على تربية

الأطفال لما يعيش فيه من جرأثيم ، اما الحب فقد مسخه الجوارى واتخذن منه آلة يستخدمنها لتحقيق مطامعهن، بينما أصبحت الأمومة واســـطة لوقاية النفس من شر الضرائر .

ربما لا أستعيد قراءة هذه المذكرات بعد الآن ، فانى بطبعى لا اقرأ الشيء مرتين حتى خطابات الخديوى التى كان يرسلها الى لا أعيد قراءتها ، وقد وصل الى فى احد الأيام خطاب خشن من الخديوى ، وكان هو فى سراى عابدين وكنت انا فى سراى مسترد اتهيأ للذهاب الى عابدين لتناول الغداء معه وكان السبب فى ارسال هذا الخطاب الخشن هو انه بلغه ــ خطأ كالمادة طبعا ــ انى دعوت بعض السيدات ولكنى لم اكن قد نفذت هذا العزم بعد ، وكانت نتيجة هذا الخطاب ان حفلة الشاى الغيت .

واذكر لا ازال أذكر نظرتك بطرف عينك الى منفضة السجائر لتعرف ماذا كنت أدخن فى رمضان ولكنى أعلم انه ان لم يكن لى وازع من ضـــــميرى فانى لا أخشاك وأجاهر بالتدخين امامك .

لقد فرقت بيننا الأيام الآن ، ومشى بيننا الـــدهر ، ولكننى على يقين من أن روحينا ما زالتا على اتصال فانك تشغل جزءاً من نفسى كما أشغل جزءاً من نفسك يحيا بذكراى ، فاذا مت أنا فسيموت معى من نفسك ذلك الجزء الذى كنت أشغله .

منشا الحريم وتطوره

كلمة (حريم) التركية مصدرها عربى ، والفعل منها (حرم) ومعناه الممنوع غير الجائز كما أن فيه معنى القداسة ، فالكعبة حرم ومكان مقدس لا يجوز انتهاك حرمته ، والذى يلجأ الى الكعبة يصبح آمنا فلا يجوز قتله ولا مطاردته ، وفى موسم الحج لا يجوز قتل اى كائن حتى فى الدائرة الحرام .

على انه لا توجد كلمة اسىء استعمالها بقدر ما اسىء استعمال كلمة (حريم) بعد أن أطلقت على القسم المخصص لسكن النساء فى البيوت واصبح النساء فيه سجينات يقوم على حراستهن أغوات لا يصدعون الا بأوامر اسيادهم الذين له مطلق التصرف فى هذا السرب من السجينات ويدعى هؤلاء الأسياد انهم يحافظون على النساء بهذه الصورة ويمنعون عنهم يد الغريب ، ولكن الواقع هو ان المرأة لم تكن فى حياتها أضيع منها وهى بين جدران الحريم حيث تمتهن كرامتها وتضيع حقوقها التى نص عليها الدين الاسلامى ، فقد كانت النساء فى عهد النبى (صلعم) متساويات فى الحقوق مع الرجال يغشين المجالس ويحضرن المجتمعات ويشتركن معهم فى الصلاة ، ولم تكن الصلاة فى ذلك الوقت على

ناعم الأبسطة وفاخر السجاجيد ، وانما كانت على الرمل والتراب وذلك لأن نعومة الأبسطة قد تجعل الانسان ينصرف عن خشوعه فى الصلاة ، ونص الحديث على تحريم الذهب والحرير على الرجال ، ولكن علماء الدين فى العهد الأخير أغمضوا عيونهم عن هذا الحديث وراحوا يلبسون الحرير الوانا ويتحلون بالذهب جهارا .

ولم يأمر النبى (صلعم) بالفصل بين الرجال والنساء الا عندما جاءه وفد من النساء يشكو من اثرة الرجال وجلوسهم فى الصفوف الأمامية فى مجلس النبى بحيث كان يتعذر على النساء السؤال والمناقشة فأمر النبى بأن يكون للنساء مجلس خاص فى يومى الاثنين والثلاثاء يشرح لهن فيه ما صعب عليهن ادراكه ومناقشته فى كل مسألة لكى يكن فى ايمانهن على هدى ، والدين الاسلامى قائم على العقل والادراك ، فهو لم يعرض شيئا لا تقبله العقول .

ويبيح الاسلام للرجل المتزوج من اربع نساء عدا ما ملكت يمينه من الجوارى أن يسوى بين الأطفال ، فأبن الجارية له نفس الحقوق التى يتمتع بها ابن السيدة ، ولم يحرم الاسلام زواج الرجل من غير المسلمة ، ولكنه جعل الولد تابعا لأبيه اذا حصل على الطلاق .

وكان للمرأة نفس حقوق الرجل فى طلب الطلاق اذا توافرت أسبابه ، ومن هذه الأسباب مرض لا يرجى شفاؤه ، أو نقص فى الرجولة ، أو خيانة الزوجية ، أو منع حقوق الزوجة ، أو القربة لهم أو عدم وجود التوافق بين الزوجين ، وزادت المراة على الرجل حقا فى طلب الطلاق وهو أن الزوج لا يستطيع الانفاق عليها .

وقد سلبت من المرأة كل هذه الحقوق فلم يعد في امكانها طلب الطلاق ولو كان زوجها اقل النـــاس عملا بأوامر اسلام .

وتدلنا القصة الآتية على أن النبى اجاز الطلاق اذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجين وهو انه (صلى الله عليه وسلم) رأى (مغيثا) يسير وراء زوجته (بريرة) وهى تعرض عن حديثه ولا تعيره ألتفاتا فأرسل فى طلب الزوجين ونصح الزوجة بأن تبقى تحت طوع بعلهـــا ، ولكنها أجابت بأنها لا تحبه ولا تطيق الصبر على معاشرته فقال لمغيث انه من العبث أن يمسك انسان زوجة لا تبادله الحب ولا تريد معاشرته ، ثم طلقهما .

وقد أعطى الدين للمرأة حق التصرف فى جسمها فلا تمنحه الا لمن تريد ولا تتزوج مكرهة ، وسواء فى ذلك الحرة أو الجارية .

كل هذه التعاليم القديمة التى نص عليها الاسلام لعبت بها يد الذين لا ذمة لهم ولا ضمير ، وأصبحوا لا يخشون الله انما يبتغون مرضاة أسيادهم وملوكهم الذين يمنحونهم المال والحياة ، فأخذوا يفسرون أوامر الدين وفق الاهواء والاغراض ، فوضعوا قواعـــد هى خليط من ممنوع وحرام ، ولا اتصال بينها وبين قواعد الدين الاصلية ، فالدين لم يقض بغطاء الرأس والوجه واخفاء الشعر ، وانما جعل ذلك بعض السلاطين غيرة منهم على النساء ، والدين لم يأمر النساء الا بستر أجسامهن لانهن كن — فى عهد النبى — يسرن بصدور مكشوفة وملابس لاتغطى كل أجسامهن ، ولو ان عادة غطاء الرأس كانت معروفة أو جاء بها الاسلام لما استطاع النبى أن يرى زينب زوجة زيد وهى تمشط شعرها فأحبها ، وقد ذكر ذلك فى

القرآن « تخفى فى نفسك ما لله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ولما جاءه زيد يحدثه فى طلاق زينب قال له « امسك عليك زوجك واتق الله » فلما طلقها زيد تزوجها النبى .

وكان النبى هو الوحيد الذى يعلم الناس دينهم الا اذا حال بينه وبين ذلك مرض أو عاق عائق فانه كان يرسل من ينوب عنه ، وبعد وفاة النبى كان العلماء يعلمون الناس ولا يتناولون عن ذلك أجرا أو يأخذون مرتبا ، وظل هكذا حتى عهد معاوية ، ففرض الأجور العلماء وأجرى لهم المرتبات فأصبحوا خاضعين وينتهون بنهيه ويغمضون العين عن مساوئه ويعبثون فى الدين ما سولت لهم نفوسهم ابتغاء مرضاة السلطان .

حرم الاسلام قتل الاطفال واجهاض النساء وكان العرب يفعلون ذلك خوف الفقر فنهاهم الاسلام عنه ، لكن هذا النهى الصريح لم يجد منفذا الى جدران الحريم وليس الدافع للقتل هو الفقر ، كما كان عند العرب ، بل الاثرة والطمع وحب الملك والغيرة ، وأمعن بعض السلاطين في الضلالة فسنوا قانون قتل الأخ محافظة على الملك .

فبأى حق بعد هذا تسمى تلك الدور حريما تشبيها بالكعبة والبيت الحرام ؟ ولو انصفوا لسموها « بيوت الشرور » ولو اطلع النبى الآن على ما يسمونه «حريما» وما افتراه السلاطين والعلماء على الاسلام لأنكرهم جميعا وبرأ الاسلام منهم .

تولى الخلفاء الراشدون شئون الاسلام من بعد النبى فساروا على منهجه وتبعوا خطاه ، وبالرغم من توسع الأملاك وكثرة المال فان هؤلاء الخلفاء ظلوا يعيشون عيشة بسيطة لا يختلفون فيها عن سائر أفراد الشعب .

ولما آل الأمر الى معاوية اتخذ دمشق عاصمة لملكه وبنى قصر الخضراء وخصص فيه جناحا لسكنى النساء ، فكان هذا أول حجر وضع فى بناء الحريم .

وجاء من بعده ابنه يزيد فكان همه اللهو والنساء ، وكان أول خليفة شرب الخمر جهارا واكثر من شراء الجوارى وبناء القصور لهن ليتمتع بهن وحده ، وانتهى عهد الفتوحات الاسلامية واشتغل الخلفاء باللهو وتعلقوا بالحب ، فكان كل منهم يبز الثانى فى اقتناء الجوارى والراقصات ولا يعنيه من شئون الدولة الا أن تكون لذته موفورة وجواريه حاضرة ، فاذا سمع بجارية لا يدخر وسعا فى سبيل الحصول عليها ولا يقتصد فى الثمن .

ولما آل الملك الى العباسيين وكثر الطلب على الجوارى ارتفع ثمنهن حتى بلغ ثمن الجارية مائة الف درهم كان الخليفة يدفعها عن طيب خاطر ليرضى لذته ويطفىء شهوته ، وملأ الأعين نهر الدجلة بالسفن يخالها الناظر أسطولا ، ولم تكن الا مسكنا للراقصات والمغنيات والجوارى من بيض وسود وامتلأت القصور بالأغوات والغلمان ، وكانت كل جارية تسعى لامتلاك قلب الخليفة فحصل التنافس ثم الغيرة فالقتل بالسم أو الخنجر واصبح الحكم كله فى يد النساء والموالى ، فلما تقلب

هو لاكراه ملك التتار على دولة العباسيين فى خـلافة المعتصم جلس ذلك الخليفة فى قصره ينتظر دخول الفاتح ولم يجد طريقا للدفاع عن نفسه الا ان يمـلأ الأوانى باللآلىء والجواهر ليقدمها للملك المغــــير وفى ظنه أن هولاكو تبهره هذه النفائس ، ولكن خاب فأله ، فان ملك التتار وزع الجواهر على رجال جيشه ، ثم اخذ الخليفة ونساءه ، وكان عددهن نحو الخمسمائة الى معسكره ، وهناك أمر بوضع الخليفة فى حقيبة من الجلد وأن يغرق فى نهر دجلة بعد أن يطاف به شوارع بغداد .

الحريم عند سلاطين آل عثمان

ان الباحث المتعمق فى أعمال السلاطين العثمانيين لا يرى فى أعمالهم أظهر من الخنق والشنق والتسميم والاغراق والحبس ، فقد كانوا يعتقدون ان هذه الأسس تمهد للسلطة وتوطد مركز الخليفة لأنها تبعد المنافسين من الطريق وكانت أنجح الطرق للتخلص من المزاحمين .

وليت شعرى كيف كانت المرأة تصبر على آلام الحمل وهى تعلم أن طفلها سيقتل عقب الولادة ؟ ولست أدرى بأى عاطفة كانت تتقدم المرأة الى السلطان تبادله القبلات وتنافس غيرها فى حبه وهى لا تملك من امرها سوى الساعة التى تحيا فيها ، وربما لا تطلع عليها شمس الغد حتى تكون غريقة فى البسفور ، وأغلب ظنى ان ذلك الزمن انفرد بصنف مخصوص من النساء لا يرين ولا يسمعن ولا يشعرن .

كان السلطان بايزيد الأول هو أول من وضع مبدأ قتل الأخ ، وجرى السلاطين من بعده على هذه السنة بحكم العادة حتى جاء السلطان محمد الثانى فجعل قتل الأخ قانونا من قوانين الملك وركنا من اركان حفلة التتويج ففى اليوم الذى يتولى فيه السلطان يقتل سائر اخوته، ومن عجب ان هذه الجريمة تستند الى افتاء المفتى الذى

يابى الا ان يفترى على القرآن ويستوحى منه فتـواه فيقول ان حياة هؤلاء الاخوة قد تؤدى الى الفتنة ، ويقول القرآن « الفتنة اشد من القتل » .

ولم يكتف السلاطين بقتل الأخوة ، بل كانوا يقتلون ابناء بناتهم وابناء اخواتهم ، فاذا ولدت ابنة السلطان او اخته مولودا ذكرا يقتل فى الحال ، وما نجا رجل من هذا القتل الا اذا ساعدته ظروف قوية على الاختفاء او الهرب أو شاء القـــدر أن يكون هو النجل الوحيد للسلطان ، وكثيرا ما كان الســـلاطين لا ينتظرون حتى تضع المراة حملها بل يعجلون بها الى البسفور اقتصـــادا للوقت والمجهود ، وظل قـانون قتل الأخ قائما حوالى اربعمائة سنة ، حتى جاء السلطان عبد المجيد فألغى هذا القانون وصار الاخوة لا يقتلون ولكن يحيون .

وانسع ملك العثمانيين وآلت اليهم الخلافة فأصبحوا يلقبون « بظل الله على الأرض » فتوسعوا فى اقتناء الجوارى والغلمـــان من شركسيين ومجريين ويونانيين وبلغاريين والبانيين ، فمن نال منهم حظوة عند السلطان رقى الى أعلى المناصب حتى أن بعضهم أنعم عليه بلقب الامارة وكانت الحظوة لا تنال بذكاء العقول ولكن بجمال الأجسام .

راى سليمان الأول ، وكان فى ذلك الوقت وليا للعهد، فتى يونانيا يساعد أباه ، وكان بحـــارا ، فاعجبه الفتى وراقه منه انه كان يجيد العزف على الكمنجة ، فاصطحب الفتى وقربه اليه ، فكان لا يجلس فى مجلس الا والفتى الى جانبه ، فلما آل اليه الحكم رفع من شان هـــذا الفتى وعرفه التاريخ تحت اسم ابراهيم باشا ، فـــكان يركب الى جانب السلطان فى الغـــــزوات والفتوح ،

ويستقبل معه رسل المماليك ، ويدير معه شئون الدولة وأصبح وزيره الأكبر . ومع أن ابراهيم باشا كان مخلصا لسيده ولم يسيء استعمال سلطته فان السـلطان أمر بخنقه على حين فجأة ، والواقع ان ابراهيم باشا لم يقتل الا بدسيسة امرأة .

ففى الوقت الذى علا فيه شأن ابراهيم فى الخارج علا فيه أيضا شأن جارية فى الحـريم ، وكانت تدعى « روكسلان » وكانت آية فى الجمـال وساءها ان يشاركها احد فى الاستئثار بالسلطان ، فما زالت تسعى حتى أغرت السلطان بقتل ابراهيم ، ولم يقف تأثيرها على السلطان عند هذا الحد ، بل جعلته يقتل ابنه مصطفى لأنه من امرأة غيرها .

ولم يكن من السهل ادارة الحريم ، كمـا يجب ؛ فرئيسة حريم مراد الثالث كان تحت حراستها أربعون محظية ومائة طفل وخمسمائة جارية ، وفى نفس الوقت كان من واجبها أن تكون على اتصال بشئون الملك فى الخارج ومراقبة ما يجرى فى الحـريم فى الداخل ، والعمل على ان تتصل احدى النساء بالحياة الخارجية ؛ ولكن النساء كى أمهر من أن تقف فى سبيهلن الجدران ، وثبت ان المحظية « روقية » وهى من فينيسيا كانت تراسل « كاترين دى مديسى » وكانت تحاول استغلال نفوذها لصالح بلادها .

واحتفل مراد الثالث بختان ابنه احتفالا لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، فاقيمت الافراح خمسة وخمسين يوما انفقت فيها الملايين وحضرها مندوبون من جميع الدول واتجهت انظار العالم الى قطعة جلد ستقطع من طفل .

أقيمت القصور الفخمة لسكنى الضيوف من ملوك وأمراء ، وهدمت احياء بأكملها ليقام فيها الاحتفال ووسعت الشوارع لمرور الموكب واقيمت السرادقات والمسارح وجيء بالممثلين والمشعوذين وارباب الألعاب من كل قطر حتى اصبحت العين لا تحصى عدد الملاهى .

وفى اليوم الأول من الاحتفال خرج السلطان فى مهرجان عظيم الى السراى المعد له ثم تبعه ولى العهد ثم السلطانات ثم الحريم بأكمله يحتاط به بحر من الاغوات السود ، واقبلت وفود المهنئين من نفيس الجواهر وفاخر الحلي وانيق الثياب ، وكان المهنئون يتنافسون فى تقديم الهدايا ، فكل منهم يحاول أن يبز الثانى فى هديته .

وبعد ذلك ينصرف الجميع الى مشاهدة الملاهى فيمر الدراويش والراقصات والمغنون والخيالة وحملة الرماح والعاب الفروسية ، فاذا حان المساء جاء دور الفقراء فكانت تذبح لهم العجول والخراف مما لا عدد له ، وفى الليل تموج المدينة بالأنوار وتزدحم الشوارع بالناس ، وتسير المركبات الفخمة متنقلة من سراى الى سراى ، والناس يهللون احتفالا بظهور صبى .

وبعد أن شفي الغلام أهدى له أبوه جارية من اجمل الجوارى مكافأة له على احتمال الألم .

وتتابع سلاطين آل عثمان وكلهم سواء فى العسف والظلم حتى جاء ابراهيم الأول فكان عبدا لشهوته ، فكان مقامه فى الحريم على الوسائد الناعمة وحوله النساء والغلمان والزهور والروائح العطرية وكل ما من شأنه اثارة الشهوة ، وكان يتأنق فى ثيابه ويسرف فى التحلى بالجواهر حتى انه كان يعلق الجواهر فى لحيته ، وزين

مركبته وسروج خيله بالذهب الخالص ، وكان يطوف احيانا مع وزرائه فى المدينة ثم لا يلبث ان يقطع الطواف ويسرع فى العودة الى الحريم ، وحدث مرة انه اثناء طوافه رأى امرأة كبيرة الجسم فأعجبه هذا النوع من النساء ، فأمر بأن يؤتى له بأسمن امرأة فى المدينة ، وخرجت الجنـــود للبحث وجاءوا بنساء كثيرات لم يوافقهن خياله ، حتى عثروا أخيرا على أرمنية حازت رضاء السلطان فقربها اليه ، واخذ نفوذها يكبر بنسبة جسمها حتى تضاءل امام نفوذها نفوذ السلطان ونفـــوذ المحظيات الاخريات فتآمرت المحظيات ضدها ، وبلغهـــا خبر المؤامرة فأقامت وليمة دعت اليها غريماتها ، ثم أمرت بخنقهن على المائدة ، وانفردت هى بالسلطة ، فكانت تغرى الســـلطان بقتل من تشاء وترفع من تشاء ، والسلطان لا يرد لهـــا كلمـــة لأنه كان عبـــدا لشهوته ، والويل للطبيب الذى ينصح السلطان بمراعاة صحته ، فانه يعرض نفسه لغضب لا يعرف نتيجته .

وفى عهـــد مراد الرابع علا نجم غلام جميل اسمه (حسن اغا) واحبه السلطان حبا جعله يأمر بأن تقدم له واجبات الخضوع كما تقدم للسلطان نفسه ، وان تصنع ملابسه من نفس القمـــاش الذى تصنع منه ملابس السلطان ، وأن يكون جواده وجواد الســـلطان متماثلين فى الشكل واللون ، وقام الكتاب والشـــعراء يصوغون المديح فى حسن أغا ابتغاء مرضـــاة السلطان فسموه « الشمس المشرقة » وكان الســـلطان يسر لهذا المديح ويغدق على قائله بالمطايا .

ولكن الحريم ثارت وساءها أن تنزع منها السلطة ، ورأت النساء ان يتخلصن من هذا المنـــافس ، فاتفقت أم

السلطان مع المحظيات وكبير الخصيان على الكيد لحسن اغا ، ولكن هذه المؤامرة أسفرت عن غضب السلطان على كبير الخصيان فأمر بقتله ، ولم تستطع أم السلطان أن تستبدل هذا القتل بالنفى ، وظلت « الشمس المشرقة » تشرق على الشعب دون أن يمسها سوء ، ولكن حسن اغا ابطرته النعمـــة ونسى انه وان كان يلبس كملابس السلطان فان منزلته ومرتبته هى بواب .

وليس من العجيب أن نرى ســـلاطين آل عثمان اذا جلسوا على العرش أصبحوا كالوحوش الضارية فـــان ذلك يرجع الى ان الواحد منهم يظل ، وهو ولى العهد ، سجينا ، فلا يغادر سجنه الا الى العرش ، وكان لولى العهد حريم خاص وسط الحريم العام ، فكان فى سجن من داخل سجن ، ولا يجوز لانسان أن يخاطبه دون اذن السلطان ، وبالرغم من أن هذه العيشة لم تكن جذلة ولا ترتاح اليها النفوس فان بعض أولياء العهود كانوا يأبون مبـــارحة حريمهم اذا انفتح لهم الباب لتنسم الحرية ، وذلك خوفا من أن يكون فى الأمر دسيسة من السلطان يحاول بها قتلهم وكان أغلبهم لا يغادرون حريمهم الا اذا جاءوا له بجثة السلطان الميت .

وعندما يتولى السلطان تسير حريمه لاحتلال السراى وطرد حريم السلطان الميت الى سراى قديم وقد تثور الحريم المطرودة لسلطتها الضائعة ، فيملأون الجو صراخا ويكسرن الشبابيك والأبواب ويخربن فى القصر بقـــدر ما يستطعن ، ولعلم السلطان بأن مدة سلطتهن لا تطـول الا بقدر ما يعيش السلطان كانت احداهن اذا نالتهـــا الحظوة أسرفت فى استعمال نفوذها لأن الوقت قصير

وكانت تدور فى الحريم حرب خفيـــــة لاكتساب رضى السلطان والاستبداد بالنفوذ .

وهكذا ظلت الحريم يتعرضن في شـــــئون الدولة والنساء يحكمن من خلف الستار حتى تولى البادیشاه عبد الحميد خان ساكن قصر يلدز .

الحـــريم فى مصـــر

لا يكاد الرجال ، وعلى الأخص الاوربيون ، يسمعون كلمة الحريم ، حتى ينصرف خيالهم الى الرقص والغناء او بركة من الماء المعطر تتواثب حولها العذارى والفتيات يسبحن ويرقصن ويغنين .

ولكن الذى وقعت عليه عين الحريم فى مصر ليس فيه شىء من هذا الخيال ، فالجوارى فيها فتيات يلبسن ملابس بسيطة نظيفة ، ولكنها غير مغرية ، فالحـريم بكاليته تسيطر عليه امرأة ، وهى زوجة السيد او امه او رئيسة الجوارى ، وفى كل هـذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على الا تبدو الجارية امام سيدها جميلة فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة ، والأم حرصا على الا يتزوج ابنها من جارية ، ورئيسة الجوارى طمعا فى ان تصبح هى السيدة .

وعلى هذا فالجوارى فى مصر لسن أداة للتمتع واللهو ، وانما هن خادمات ، وان كن اقل من الخادمات حقوقا ، فهن لا يتناولن أجرا على خدمتهن ، ولا يستطعن مغادرة بيت المخدوم الى بيت سواه .

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها ، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بألا تقوم السيدة بعمل

ما ، ولو كان في متناول اليد ، فتقديم القهوة له نظام خاص ، وحمل الملابس على البدلة له نظام خاص ، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضـــا ، ولهذا قد يرى الانسان كثيرا من الجـــوارى منهمكات ولا يرى عمــلا يؤدى ، فهناك مثلا « سفرجى كالفة » ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط ، وهنا « قهوجى كالفة » وعملها تقديم القهوة فقط ، وهنا « شمورجى كالفة » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد ، وعملها ينحصر بين الحمـــــام وغرفة الزينة وغرفة النوم . ولذلك ترى السيدة « هانم افندى » فيهن الخطر كل الخطر لكثرة احتكاكهن بالبك أو الباشا ولكى تامن السيدة شرهن تغدق عليهن الهدايا لتكسب مودتهن أو تنزل بهن سخطها لتجعلهن من غضبها على حذر ، على ان النتيجة فى كلتا الحالتين غير مضمونة ولهذا تهتم بعض السيدات بخدمة زوجها بنفسها ، اما بدافع الحب أو بدافع الحذر وخصوصا اذا كانت هذه السيدة أصلها جارية ثم أصبحت « هانم افندى » فانها تعرف فقط كيف تبعد الجوارى عن زوجها .

وكان البك أو الباشا رمزا للسيادة فقط ، ولكنه فى الواقع لا يعرف سيئا مما يحدث فى داخل الحريم ولا يهتم لمعرفته ، فاذا دخل الى البيت يلقاه الجميع بالخضوع الواجب وابتسامة لا تفارق الثغور ، والويل لمن تتقدم اليه بشـــكاية فان هذا يمكنن مزاج البك ، وما وجد الحريم الا ليدخل على نفسه السرور ، وهذا فضلا عن انه لا يستطيع ان ينفع الجارية بشىء اذا شكت اليه ، بل ربما جلبت شكايتها لها آلاما جديدة .

يبيح الدين للرجل ان يخالط جواريه وينص على ان ابن الجارية لا يقل عن ابن السيده فى شىء ولكن من ذا

الذي يتبع تعاليم الدين ؟ وحتى اذا فرضنا ان الرجل خالط جاريته بنية حسنة — وما اقل ذلك — فان هذا غير مانع لان تبلغ الجارية آمالها ، فالسيد قضى ساعة لهوه وانتهى ، والجارية تظل رهينة الخوف من العين الرقيبة ولا تستطيع أن تبوح بسرها لأحد ، وان تبوح ؟ ربما الى جارية مثلها والجوارى يدعون بعضهن « همشريم » اى أختى ، وهن فعلا اخوات فى الشقاء ، اخوات فى الحرمان ، ولكنهن ايضا أخوات فى الأمل ، اخوات فى الطموح ، اخوات فى الضعف ، وربما باحت احداهن بسر أختها تحت تأثير الخوف ليس الا .

اتبوح بسرها الى احد الأغوات ؟ قد تجد من هذا الرجل بعض العطف أو تسمع منه كلمة تعزية ولكنهم جبناء لا يستطيعون شيئا .

وهكذا تظل المسكينة فريسة الخوف وهى تعلم ان سرها سيفتضح يوما ما ، وانها ان استطاعت ان تحبس لسانها فان جسمها سينم عنها ، فربما كان من الخير أن تخبر سيدها بالأمر . ولكن كيف تخبره ، انهـــا لا تجمعها بذلك السيد الا جامعة الطاعة العمياء ، ثم هى تقوم على خدمته كل يوم فلا يعيرها التفاتا بعد تلك الليلة ، ويتناول منها الملابس حسب عادته القديمة ، بسرعة أو بتؤدة ، دون أن يلحظ انهـــا هى ، هى بعينها ، تقوم على خدمته .

وها هى أخبرته ، فماذا هو صـــانع ؟ سيحيلها على الهانم لتدبير الأمر ، والهانم لها أولاد .. ولا يعجبهـــا طبعا ان يكون هناك أولاد من غيرها يشاركون أولادها فى الاسم والجاه والميراث . وهنا ينصب على الجارية غضب الهانم مزدوجا ، غضبها بصفتها زوجة ، وغضبها بصفتها

أما ، واذا أراد السيد الا يكل الأمر الى الهانم . وفضل أن يخبر رئيسة الجوارى لعلها تتدبر الأمر ، فان النتيجة لن تكون خيرا من الأولى ، لأن الرئيسة تكون دائماً فى صف الهانم ، وقد لا يخبرها بالأمر مباشرة خوفا من سيدتها ، ولكنها لا تعدم وسيلة تفهمها بها حقيقة المسالة وتأمر السيدة بأن تعفى الجارية من العمل وتلزم غرفتها لا للراحة كما قد يظن ، ولكنها تحبس فى الغرفة لتذوق العذاب . واعرف قصة جارية حبستها سيدتها فى الغرفة وأمرتها بأن تحيك « ناموسية » فكانت كلما حاكت جزءا قطعته السيدة بحجة انه خطأ ، وترشد الجارية الى الصواب ويكون هذا الارشاد دائمــــا مصحوبا ببعض اللكمات والرفصات والقرصات ، فاذا جاء اليوم الثانى وفعلت الجارية حسب الارشاد اكتشفت السيدة خطأ جديدا ، وفعلت بها فعلة اليوم السابق .

ولا يكاد يختلف حريم فى مصر عن الآخر ، فالأساس متشابه والنظام واحد ، وبعد شرب القهوة يبدأ الحديث، وهو حديث عجيب ، فمثلا عيشة هانم ظلت مدة لا تلد وكان يقتلها الشوق الى الأطفال ، فأشارت عليها جاريتها العجوز بأن تزور النخلتين ، وهما نخلتان لا تفصل بينهما الا فرجة بسيطة فأخذت عيشة هانم تتردد يومياً على النخلتين وتمر من بينهما ، فرزقهـــا الله بغلام ... ما شاء الله !!

وفى حريم احد الأمراء أصيب طفل بحمى التيفود ، وحار الأطباء فى علاجه فجاء اغا القصر وكتب آية من القرآن على ورقة ، ثم وضع الورقة فى كوب من الماء حتى محيت الكتابة ، وسقى المريض من هــذا المــاء المخلوط بالحبر فشــفى بعــد خمس دقـــائق ... ما شاء الله !!

ونساء الحريم جميعا يؤمن بالخرافات ويعتقـــدن بالسحر فمنهن من تأتى بعظام الحيوانات فتقرا عليهـــا التعاويذ وتبخرها ثم تضعها تحت رأس زوجهـــا لكى تطرد من قلبه حب واحدة اخرى ولا تبخل الواحدة بالمال فى سبيل الحصـــول على شراب الحب ، وهـــو شراب يجهزه بعض المشايخ « الباتمين » ، ويقرأ عليه عزائمه وتعاويذه فاذا شرب منه الزوج أحب زوجته الى حـــد الجنون ، واذا اخفق فعل السحر لم ينسب ذلك الى كون كل هذا دجلا لا طائل تحته ، وانما يقال ان الهانم لم تستعمل السحر حسب الشروط المطـــلوبة وهنا اقول انا ... ما شاء الله .

ولم يكن مسموحا للطبيب بعيادة الحريم ، فـــكانت مرضى الحرم تداوى بطب التجارب ، فاذا استعصى الداء واشتد الخطر جاءوا بالطبيب ولكن لا يسمحون له برؤية المريضة شخصيا والكشف عليها بل يتولى احد الأغوات « الترجمة » بين العليلة والطبيب ، فيصف للطبيب أوجاع المريضة وما تحس به ، وهذا يصف العلاج اللازم ، فاذا أخفق العلاج ، وهو المنتظر فى مثل هذه الأحوال ، اعتبر انصار القديم هذا الاخفاق انتصـــارا لهم واتخذوه ذريعة للطعن فى الطب والأطباء . واذا شفى المريض لم ينسب هذا الى مهارة الطبيب . ولكن الى تعويذة الشيخ او الى دواء (بلدى) وصفته (الحاجة) وبالتدريج سمح للطبيب بعيادة المريضة شخصيا بشرط الا يرى وجهها ، فكانت تقنع وتحجب ولا تكشف الا عن موضع الألم ، ويـــكون رئيس الأغوات حاضرا ساعة الكشف .

ولم تكن نساء الحريم تفهم الأمومة على حقيقتها ، بل

كن يعتبرن الأولاد وسيلة لتوطيد مركزهن ودرء الخطر عنهن من طلاق عاجل أو زواج بأخرى ، فالأطفال في نظرها درع يقيها شر الضرة ، فاذا حدث ان الزوج تزوج بأخرى بالرغم من وجود الأطفال ، فان الأم تصب غضبها عليهم لأنهم لم يستطيعوا درء الخطر ، فتحرمهم من اللعب والفسحة وتهمل شأنهم ، وتقسو عليهم ، وكأنها نسيت انها تعذبت في حملهم شهورا ، وهم في نظرها هدايا منحتها لزوجها لتغريه على البقاء معها ، فاذا لم يفلح الاغراء فهي تحاول اتلاف الهدايا وتكسيرها .

على ان الخطب قد يهون اذا كانت الضرة في داخل الحريم ، فان هناك عينا ترى واذنا تسمع وفرصة للكفاح واسترداد الزوج بالتحبب اليه أو الطعن في الزوجة الأخرى ، ولكن البلوى تكبر والمصيبة تعم اذا كانت المنافسة افرنجية تقابلها الزوج خارج المنزل ، وتحول جدران الحريم دون وصول الزوجة اليها ، فان سبل الكفاح هنا تكون ولا محل المنافسة اطلاقا ، وتصبح الزوجة مكتوفة الأيدي أمام عدو لا تراه ولا تستطيع الوصول اليه . والويل للأطفال في هذه الحالة ، فانهم يشردون في بيت أبيهم ، والتي تشردهم هي أمهم التي ولدتهم ، فأنستها الغيرة حنان الأمومة .

أما التعليم فحظ الصبيان منه أوفر من حظ البنات قعيدات البيوت ، ففي الطبقة المتوسطة يرسلون الى المدارس ، وفي الطبقات العليا يرسل الاولاد الى اوروبا للدراسة ، أو تؤتى لهم بمعلمة افرنجية لتعلمهم في البيت ، ولكن الأم ترى في هذه المعلمة خطرا على مركزها تصعب عليها مأموريتها فتتدخل في الدرس . وهي

لا تستطيع كتابة اسمها ، فتشطب من جدول الدراسة ما تريد وتقرر ما تريد حتى يضيق ذرع المعلمة فتهجر البيت ، وتأتي غيرها فتقع لها ما وقع للأولى ، وأخيرا ييأس رب البيت فلا يأتي بمعلمات ويحرم الأولاد من التعليم ، واذا أسند الدرس الى معلم سعى به السعاة الى سيدهم وطعنوا في كفاءته وأخلاقه ، فان لم تجد هذه الطعون أذنا عند السيد أتوا اليه من طريق قل ان يخفق ، فيدعون ان المعلم طعن في الاسلام والنبي وانه يلقن الأطفال تعاليم النصرانية . ومهما كان رب البيت واسع التفكير فانه لا يسمح مطلقا بالطعن في دينه فيخلي سبيل المعلم . فلا عجب بعد ذلك اذا كان الأولاد الحريم غير محبين للعلم ، حتى أن الخديوي عباس حلمي الثاني كان لا يفهم شغفي بالمطالعة . ورأى مرة كتابا في يدي فقال لي (ما هذا الحيوان ؟) وها هي الظروف التي جعلت من خديوي مصر رجلا من كبار المولين . ومن زوجة الخديوي أديبة وكاتبة ، فهل نرى أكان كل منا على حق في رأيه ، أم كنا كلانا على ضلالة !؟

على ان لكل قاعدة شواذا . فان البرنس كان أميرا وشاعرا . وكان يركب عربته فتطوف به الساعات الكثيرة وفي يده كتاب يقرأ فيه . والى جانبه عدة كتب اخرى . وأغلب ظني انه ما كان يعمد الى هذه الطريقة الا ليستطيع التفرغ للمطالعة بعيدا عن الزيارات والمحادثات التليفونية والمقابلات التي تصرفه عن كتبه العزيزة .

ولما اردت ان أتعلم اللغة العربية وأتعمق في دراستها ودراسة الاسلام . وكان من المحال اسناد هذا الى أحد العلماء لجهله باللغات الاوروبية التي اجيدها . ووكل

أمر تعليمي الى المستشرق العظيم البروفسير « هس » وهو رجل لا ازال أذكره بخير واشكره على كل كلمة علمني اياها . فكنا نجلس في غرفة المكتب في سراى (مسترد) ويبدأ في درسه . فأتنقل معه من مكة الى المدينة . ومن الحضر الى البادية في خفة ومهارة ، حتى ان قواعد اللغة العربية على صعوبتها وجدتها منه سهلة التناول ، وكان يعلمني الاســـلام من آيات القرآن . وكنت اقابله لابسة معطفي وقد وضـــعت على رأسي غطاء . ولكنهم طلبوا مني يوما أن أغطي كفي أيضا . اذ لا يجوز أن آمد له يدى عارية !!

عجبا !! المعلم لا يحق له أن يرى يدى ، وهو الذى يرى نفسي كلها . أليس هو الذى يرى روحي ؟ هنا علمت أن القوم انما يريدون أن يجعلوني عبدة لتقاليد جامدة نشأوا عليها ولم يفكروا فيها .

وكان عندي في سراى « مسترد » خادمة اســـمها « جبريلة » تقدمت بشهادات حسنة ممضاة من مركيزة أو فيكونتة أو بارونة . ويشـــــهد الجميع بانها نعم الخـــادمة . وفي الواقع كانت نشيطة وتفهم ما أريد باشارة بسيطة . وكانت الخادمات يكرهنها لانها كانت دائما تحاول التقدم عليهن والتقـرب مني وكانت تنتظر عودتي في المساء مهما تأخر الوقت فـلا تنام حتى آوى الى فراشي . فاغتبطت بها كثيرا . وخرجت مرة لبعض الشئون فلما عدت أخبرني الخدم بأن « جبريلة » عزفت على البيانو أثناء غيابي فلم أعتبر هذا خطيئة تستوجب العقاب . لانى انا شخصيا اعزف على البيانو . فلاأستطيع أن أحرم على غيرى ما أحله لنفسي . ولكني سالتها أين تعلمت العزف . فأجابتني بأنها كاثوليكية وتعلمت العزف

في الكنيسة فأصبحت أنظر اليها نظرة اخرى . ولكن لم يخامرني في أمرها شك .

وكانت تضيع مني بعض أشياء وقطع من الملابس . واخيرا ضاعت مرآة جميلة باطار مرصع . وبالرغم من أن الخدم جميعا يكرهون جبريلة فانهم شاركوني في الرأى في انه لا يمكن ان تكون هي السارقة . فطمأنت الخدم بأن الأشياء سوف توجد من نفسها .

وحدث انني أرسلت خادمتي الأولى « هرملين » الى الاسكندرية . فأخذت جبريلة مكانها في هذه الليلة ونامت في الغرفة المجاورة لغرفتي . وكنت في هذه الليلة متعبة . وقالت جبريلة وهي تسدل الناموسية انها ستسهر في غرفتها اذ ربما أحتاج اليها . ولكنني أمرتها بأن تنام فلن احتاج اليها . فأطفأت النور وخرجت . واستسلمت للنوم فحلمت انني في غابة كثيفة مظلمة جدا . تكنت اتلمس الطريق بيدي . وفجأة رأيت شعاعين من نور يقتربان مني . ثم تبينت انهما ليسا شعاعي نور بل نظرتين ، فاستيقظت من نومي فرأيت عينين تحدقان بي احداق سوء ... جبريلة !!

واعتذرت عن وجودها الى جانب فراشي بأنها ظنت بأني ناديتها وطار النوم من عيني وشعرت بأنها تكذب . ولو لم تكن نظرتها نظرة سوء لما أيقظتني من النوم . فشغلني أمرها واصبحت في نظري لغزا سرني حله . .

وبعد بضعة أيام وصل الى التماس من رجل عبثت به الأيام يرجو مساعدته في الحصول على وظيفة . أو منحه اجرة السفر للعودة الى بلاده . وجلست أقرا وكانت جبريلة في الغرفة ترتب بعض الأشياء ، فقالت

بصوت ضعيف « اننى اعرف هذا وهو انسان ذكى لعيس ويا حبذا لو تنازلت صاحبة السمو وراته شخصيا لتتأكد بنفسها من صحة ما أقول » فأجبتها الى هذا الطلب لاننى ادعى معرفة النفوس . فذهبت الى باب الحديقة تتبعنى جبريلة . فوجدت رجلا نحيلا شاحبا . ولكنى لم الاحظ عليـــه الذكاء المنشود ، ومع ذلك لم ابخل عليـــه بالمساعدة .

وحدث اننى احتجت الى مفتاح كانت تحمله جبريلة . ولما لم تكن هى موجودة ارسلت من يبحث عن المفتاح فى غرفتها ولكنهم وجدوا بعض الأشـــياء الضائعة . ومن ضمنها المرآة الثمينة . وعثروا على خطـــابات حب ومراسلات بينها وبين قسيس فى دير . وفيها شـــكر على الملابس التى وصلت الى الدير وكشف بطلبـــات جديدة . ولما عادت جبريلة لم تفقد رزانتها . بل تقدمت بـــكل جراة وقالت انها تنتظر العقاب الذى سيحل بها ؛ فأطلقت سراحها دون عقاب . وعلمت فيما بعد انهـــا التحقت بأحد الأديرة ، واما الرجل الذى أحسنت اليه على باب الحديقة فقـــد اكتشف البوليس انه فوضوى ونفاه الى بلاده .



دراسة عن :

دراسة عن :



بقلم :

سعد رضوان

أيــام جويــدان

اذا كانت الأميرة جويدان قد قدمت لنا فى مذكراتها جانبا من الحياة فى عهدها فانها قد اطلعتنا على الجانب الذى عرفته من الحياة فى القصور التى عاشت بها هذه البنت الشقية أو الأميرة المدللة .

ولكنها لم تكلمنا عن باقى افـــراد وطبقات الشعب المصرى فى عهدها ، والحق انهـــا لم تكن لتستطيع فحياتها كأميرة زوجة للخديوى فى عهد بدأ فيه تعليم النساء وخروجهن على استحياء ، لم تمكنها هذه الظروف من الاطلاع على تلك الحياة ...

والباحث اذا اراد الاطلاع على عهد من العهود فان أول ما يفعله هــو البحث عن جرائد وصحف هـــذا العهد .

والغريب ان الصحف فى عهد جويدان كانت كثيرة ومتقدمة بشكل غير متصـــور ، وهى فى نفس الوقت متنوعة منها الأدبية والخبرية والسياسية .

وهل اخبرك ان جورجى زيدان ــ اسس مجلة الهلال

في نفس السنة التي اعتلى فيها ذويج جويدان العرش اي عام ١٨٩٢ .

وكانت الأهرام قد ظهــرت قبل ذلك ببضعة اعوام فأسسها سليم وبشارة تكلا عام ١٨٧٥ وهى أكبر جرائدنا اليــومية اليوم وقــد اسس يعقوب صروف عام ١٨٨٨ بالاشتراك مع الدكتور فارس واسكندر مكاريوس جريدة « المقطم » التي استمرت فى الظهور حتى عام ١٩٥٠ .

ومن صحف ذلك العهد الســياسية « الجريدة » التى اسسها أحمد لطفى السيد كلسان حال حزب الأمة

على ان أهم جريدة سياسية هى تلك التى ظهرت فى مطلع القرن وأصدرها مصطفى كامل مؤسـس الحزب الوطنى فى يناير عام ١٩٠٠ وهى جـــريدة « اللواء » التى ظهرت لتنافس ٥٣ جريدة ومجلة مختلفة كانت تصدر وقتها .

ولا شك ان رقم الثلاثة وخمسين رقم ضخم يفاجىء القارىء ، ولكنه الواقع .. الواقع فى شعب تعداده كان تسعة ملايين نسمة منهم سبعة ملايين ونصف من العمال والفلاحين والصناع ومليون ونصف من الملاك شبه المعدمين الذين لا يملك الفرد منهم اكثر من فدان واحد بينما يملك ١٢٫٥٠٠ فرد اكثر من ٢٠٠ فدان الفرد ويبلغ أجر العامل أو الفلاح فى اليوم ما بين قرشين وثلاثة قروش وميزانية الدولة سنة ١٩٠٠ كانت احد عشر مليونا وفى السنوات السبع من مطـــلع القرن أى من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٧ تأسست في مصر مائة وستون شركة مجموع رأسمالها ثلاثة وأربعون مليون جنيه

لا شك ان هــذه الأرقام عجيبة ولــكنها كانت بداية نهضتنا .

وفى الكلام عن صحافة المهد يحسن أن أرجع الى الوراء قليلا ففى عام ١٨٦٠ اكتشف السلطان عبد الحميد ان بلاد الشام اى سوريا ولبنان اصبحت كافرة ودخلتها اشياء لا يقبلها شرعه كالصحف والمسارح والفنون ، وكان اضطهاد وثورة ضد هذه البدع بل وحدثت مذبحة ضخمة فى سوريا .. وهكذا لا تعجب من أن يهاجر الصحفيون الشوام الى القاهرة ويستقروا بها كما هاجر رجال مسرحهم واهل الأدب والفن عندهم .

تقرير قصر الدوبارة :

وهذا جزء من تقرير كتبه المتمد البريطانى اللورد كرومر الذى كان يحكم مصر من « قصر الدوبارة » الذى هو الآن مقر السفارة البريطانية بالقاهرة يقول التقرير الذى نشر عام ١٩٠٦ :

« انه مما يؤسف له ان الصنائع اليوم فى الانقراض .

فالترمواى يحل محل الحمير لنقل الركاب وبانقراض ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها .

« وقد قل استعمال البلاط البلدى لتبليط اراضى الغرف وحل محله البلاط الافرنجى المصنوع من الأسمنت ، فأخذت صناعة الحصير تنقرض .

وحلت الطلمبة الحديثة فى استخراج المياه محل الساقية ، والسقائين .

ولما كان الدباغ المصرى يجهل طرق الدباغة الجديدة فقد اخذ ينقرض امام زميله الأوروبى .

وصناعة النسيج اليدوى أصبحت تنحط وتحل محلها المنسوجات الأوروبية .

وقد بطلت أو كادت مهنة الصـــباغة بالنيلة بعد أن أصبحت الأقمشة ترد من الخـارج مصبوغة بالصباغة الحديثة .

واستبدل الأهالى ملابسهم المزركشة الزاهية الألوان التى كان يخيطها لهم الخياطون بالملابس الأوروبية التى ترد جاهزة .

وكسدت صناعة الأحذية الحمراء الوطنية حتى صار المشايخ رغم انهم اكثر الأهالى تمسكا بالقديم يلبسون احذية أوروبية .

والمنجد العربى الذى كان يرضى الجيل القـديم راى نفسه عاجزا الآن عن ارضاء زبائن اليوم الذين يطلبون منه صنع كراسى ومقاعد وأرائك من طراز لويس الرابع عشر والخامس عشر .

وقد أصبح الاختلاف ظاهرا وواضحا لكل من يقابل ويقارن بين مصر الآن ، ومصر منذ عشر سنوات أو خمسه عشر سنة فقد كانت الشوارع فى ذلك الوقت مزدحمة بمحلات الصناع من غزالين وحائكين وعقادين وصباغين وخيامين وصاغة وعطارين وقربية (لصناعة القرب التى كانت تملأ بالمـاء) وسرجية (الذين يعدون الجلود بعد دبغها للصناعة) وصانعى مناخل واقفال (فقد كانت الأقفال فى ذلك الوقت كبيرة وتصنع من الخشب ولهـا ذراع به سنون لفتحها) .. وامثالهم وغيرهم .

فكل هذه المحلات التى كانت متجاورة وكثيرة قـد قلت أو انقرضت وحلت محلها دكاكين صغيرة مليئـــة ببضائع اوروبية .. الخ .

أرايت مدى النقلة التى كانت فيها البلاد فى عهـــد جويدان .

فى عصر كهذا يحدث للناس توتر ويتحـــرك عقلهم وتنتبه أذهانهم فرغم ما قد يبدو على العصر من هدوء ربما كان ذهولا لما يحدث او هروبا من الجديد او اندفاعا اليه كان هناك غليان فى العقول والنفوس أنتج أفــرادا من المفكرين وأصحاب الرأى والأدباء والفنانين وغيرهم ولو أردت ان أعدد هؤلاء لاحتجت الى مجلد ضـــخم ولذا ساكتفى بالــكلام عن بعض حوادث ورجال ذلك العهد الذين أثروا فيه اجتماعيا خاصة وان كتابنا الحـــاليين قد وفوا ذاك الزمان من الناحية السياسية بما لا يدع مجالا لمزيد .

علي يوسف

وفى تلك الأيام ظهرت جريدة « المؤيد » وهى جريدة اصدرها الشيخ على يوسف . وأهمية هذه الجريدة هى أنها من أولى الجرائد التى اهتمت بالأخبار أكثر من اهتمامها بالمهاترات والخلافات الشخصية من مدح وذم، وان كانت مع ذلك لم تخل من روح العصر .

وللشيخ على يوسف هذا قصص تستحق التسجيل .

وأهم قصة صحفية حدثت للرجل هى حادثة سرقة البرقيات .

ففى عام ١٨٩٧ أرسل الانجليز حملة الى السودان بقيادة السردار البريطانى لقمع ثورة المهدى بالجزيرة وكان السردار يقود الجيش المصرى والجنود المصريين المشتركين فى الحملة ، ومن هنا كان اهتمام الشعب والصحف بالأخبار .

ولكن من أين تأتى الأخبار فى حالة الحرب ، اما من مراسل حربى فى الجبهة ، وهذا ما لم تكن الصحف المصرية تقدر على تغطية تكاليفه ، واما من القيادة البريطانية فى القاهرة وكبار رجال الحكومة ونظارة الحربية المصرية ، وهذا هو المصدر الوحيد للصحف

المصرية ، ولكن هؤلاء كانوا لا يعرفون شيئاً أى بمعنى أصح لا يقدمون للسائلين وخاصة الصحفيين ، غير كلام لا يخرج عن الانتصارات وعن عدم وجود خسائر وعن ان الحالة على ما يرام .. الى آخر ما نعرفه عن البلاغات الرسمية اثناء المعارك .

وفجأة ظهرت جريدة المؤيد فى عددها الصادر فى ٢٨ يوليو عام ١٨٩٦ وقد نشرت مقالا عن أحوال الجيش المصرى على الحدود .

وجاء بالمقال ان التلغرافات الأخيرة الواردة من بلدة كروسكو تفيد ان السردار شديد القلق بسبب انتشار وباء الكوليرا فى نقط ومراكز خطـــوط المواصلات وفى المعسكرات وانه قد اصيب من العساكر الخديوية أى المصريين فى اسوان ٢٩ اصابة وتوفى منهـا ١٥ جنديا فى بلدة كروسكو حدث ٢٣ اصابة وتوفى ١٣ ، وفى بلدة حلفا بلغت الاصابات اشدها فقد بلغ عدد الجنـود المصريين الذين اصابهم المرض ١٥٦ جنديا توفى منهم ٩٨ . وانه رغم حدوث اصابات فى بلدة سواردة بين الجنود الا انها لم تبلغ من الشدة ما بلغته الاصابات فى الاهالى وخاصة الفارين اللاجئين من الجنـوب هربا من الحرب والذين توفى عدد كبير منهم .

وبسبب هذه الاصابات وبسبب تأخر القطارات التى تنقل المعدات والعتاد لقدم الوابورات « القاطرات » فان الهجوم على دنقلة قد تأخر مما جعل الدراويش (الثائرين السودانيين اتباع المهدى) يتحصنون فى تلك البلدة .

وطبعا فان نشر مثل هذه الأخبار والتفصيلات اثار

هياجا كبيرا سواء بين افـــراد الشعب أو فى وزارة الحربية وكانت تسمى نظارة .

وكانت المشكلة هى ان كل المعلومات التى نشرتهـا الجريدة صحيحة ومنقولة بالنص عن برقية ارسلهـنا السردار باللغة الفرنسية الى نظارة الحربية ، ومعنى هذا ان هناك أحدا قد سرق نسخة من البرقية وسلمها للجريدة .

وبلغ الأمر من الهياج أن ناظر الحربية امر بنقـل ستة من موظفى الوزارة الى الحـــدود ، لا لأنهم ثبت ضدهم شيء ، بل لمجرد ان البرقية تدوولت بين أيديهم وهى فى مظروف مغلق .

ويحدثنا الدكتور محمود كامل المحامى والقصاص فى كتابه اشهر القضايا المصرية عن هذه الحادثة فيوضح ان المؤيد عادت بعد ذلك ونشرت برقيات آخرى فى نفس الموضوع مما مكن الجريدة من تغطية انباء تلك الحرب ، وان الذى كشف السر هو جريدة المقطم وكانت تنافس المؤيد ، وبين الجريدتين خصومة وسباب متبادل ، وكان للمقطم مراسل فى بلدة ببا أرسل اليها برقية فى ٢٧ يوليو عام ١٨٩٦ بها اخبار خاصة بالجريدة ، وسلمت البرقية للمقطم من مكتب تلغراف الأزبكية ، وفوجيء صاحب المقطم بأن نفس البرقية قد نشرت فى المؤيد رغم ان الشيخ على يوسف ليس له مراســـل ببلدة ببا . وتوجه الدكتـــور فارس نمر صاحب المقطم الى رئيس مكتب الأزبكية يشكو له ما حدث .

وكلف رئيس المكتب ، وكان هو نفس المكتب الرئيسى

الذى تصل اليه برقيات وزارة الحربية ، احد الموظفين بمراقبة زملائه .

وقدم الموظف تقريرا لرئيس المكتب بانه راى توفيق أفندى كيرلس احد موظفى المكنب ينقل صورة برقية مرسلة من مراسل جريدة الديلى تلجـــراف الأنجليزية بالقاهرة الى جريدته ويخفيها بجيبه .

وفتش رئيس المكتب توفيق كيرلس وقبض عليـــه ونســــــخة البرقية بجيبه الذى اتضح انه على علاقة بالشيخ على يوسف وانه ينقل له صورا من البرقيات الهامة .

والمهم ان الشيخ على يوسف وتوفيق كيرلس قـــدما للمحـــاكمة وحكم ابتدائيا بحبس توفيق كيرلس ثلاثة اشهر ولكن محكمة الجنح المستأنفة براته بعد مرافعة المحاميان الهلباوى والحسينى وكانا من أشـــهر محامى ذلك العصر واولهما كان أحد المدافعين عن المتهمين فى قضـية دنشواى فيما بعد .

والقصة الثانية الشـــــــهيرة للشيخ على يوسف هى قصة زواجه .

وفى سنة ١٩٠٤ أراد على يوسف أن يتزوج .. وعلى صحافى كبير له جريدة رائجة ولا شك ان تقدم صاحب ورئيس تحرير جريدة يومية كبيرة اليوم بطلب الزواج من اية بنت سيجعلها تفرح ويجعل اهلها لا يترددون فى قبوله زوجا لابنتهم .

ولكن عهد على يوسف كان غير ذلك فاذا كنا قـــد قرأنا فى مذكرات جويدان مقدار عدم احترام الخديوى

للكتب الأدبية واحتقاره لها ، فما بالك برأى اهل ذلك الوقت فى الصحف والصحفيين .

الحق ان كبراء ذلك العهد لم يكونوا ينظرون الى الصحفيين الا كطبقة غير لازمة للمجتمع ، وكان الصحافى « جورنالجى » ، والجورنالجى ليس شخصا هاما يحق له الزواج ببنات العائلات الكبيرة .. كما ان الصحافة كانت ناشئة ، ونحن نعلم ان المحافظين يعارضون دائما كل جديد ولا يعترفون بقيمته الا بعد أن يفرض نفسه .

والمهم ان الشيخ على تقدم لخطبة بنت احدى الأسرات الكبيرة فى عهده هى الآنسة صفية التى يرجع اصل عائلتها الى سلالة الحسين . ولم يوافق ابوها ، ولكنه بعد الحاح بعض الكبراء والوزراء والأمراء الذين وسطهم على يوسف اضطر الى الموافقة وتمت الخطبة وقدم الشيخ المهر والنيشان اى الشبكة و ..

ولكن يبدو ان الأب راجع نفسه فى هذه الزيجة فانه أخذ يماطل فى الزفاف لفترة طويلة رغبة منه فى أن يتضايق العريس فيفسخ الخطبة . ولكن العريس كان مشاغبا فقد استطاع أن يقنع العروس صفية بواسطة بعض قريباتها بالهروب من بيت أبيها الى منزل على يوسف الذى أحضر المأذون وبعض الأصدقاء واتم العقد .. ثم نشر الخبر فى اليوم التالى بجريدته حتى يضع الوالد أمام الأمر الواقع .

وكان حادثا خطيرا واسرع الأب الى ابلاغ النيابة ضد الشيخ بأنه غرر بابنته ، ولكن النيابة حفظت البلاغ لان الزواج سليم والبنت بلغت سن الرشد .

واتجه الأب الى القضاء فرفع دعوى امام المحـــكمة الشرعية للتفريق بينهما وبطلان الزواج لعدم الكفاءة بين الزوجين .

ونظـــرت القضية فى جلسة ٢٥ يوليو عام ١٩٠٤ وحكمت المحكمة مبدئيا وبصفة مستعجلة بالتفريق بين الزوجين لحين الفصل فى الموضوع .

ورفضت صفية الذهاب الى منزل والدها تنفيـــذا للحكم ، وحتى لا تثار المشاكل فان الشيخ على يوسف قد نقل زوجته الى بيت محايد هو بيت الشيخ الرافعى لتعيش فيه بعيدا عنه وعن والدها .

ولكن القاضى رفض هذا الحل واعتبره تحديا للمحكمة وأوقف القضية لحين تنفيذ حكم المحكمة بذهاب صفية الى بيت أبيها .

والمهم ان القاضى أصدر حكمه بالطلاق لعدم التـكافؤ لأن الشيخ على من اصل فقير غير معروف وان الثراء لا يزيل عنه أصله ، ولانه يعمل فى مهنة محرمة شرعا وهى الصحافة لأنها مهنـــة تقوم على الجـــاسوسية والاشاعة وكشف الأسرار وهذا ما نهى عنه الشرع !

ومهما يكن فانه بعد صدور الحـكم واسترداد الاب لكرامته التى اهينت بهـــروب ابنته فان الوالد ابدى سماحة وأعاد تزويج على يوسف بابنته صفية بعقـــد جديد .

ابراهيم المويلحى وابنه محمد :

ومن أدباء تلك الفترة وصحفييها ابراهيم المويلحى الذى

ولد سنة ١٨٤٦ وتوفى عام ١٩٠٦ وأنشأ مجلة « مصباح الشرق » تلك المجلة الساخرة التى كان الناس ينتظرونها مساء كل خميس لما فيها من صور كاريكاتورية ساخرة. وكان ابراهيم قد عاش فى الآستانة عشر سنوات باستدعاء من السلطان عبد الحميد فلما عاد الى مصر ألف كتابا عنوانه : « ما هنالك » .

وفى كتابه هذا سخر من البلاط العثمانى ومن السلطان عبد الحميد الذى استولى الدجالون على عقله .

وكان هناك دجال اسمه « ابو الهدى الصيادى » احد اربعة دجالين أوهموا السلطان انهم يعلمون الغيب وان الأمة العربية بين ايديهم وانهم قادرون على ان يعيدوا له لقب الخلافة .

وكان الشيخ ابو الهدى قد ذهب الى السلطان ليبلغه رؤيا رآها فى منامه ، ورفض ان يتكلم مع السلطان الذى لا يعرف غير التركية بينما الشيخ لا يعرف غير العربية ، بواسطة مترجم ، لأنه امر ان يبلغ الرؤيا شفاهة وللسلطان شخصيا دون وساطة .. وخرج .. وبعد يومين عاد الشيخ ووجهه متهلل وقال انه سيبلغ الرؤيا الآن بنفسه للسلطان لأنه يتكلم التركية .. فسألوه كيف أمكنه تعلم اللغة التركية فى يومين فأجاب بانه جاءه فى المنام كبير المقام ، وملس على فمه فتكلم التركية ، فلما سمع السلطان ذلك انفرد بالرجل ، وبعدها اصبح الشيخ اثيرا عنده .

الابن :

ولد ابنه محمد المويلحي عام ١٨٦٨ وتوفي عام ١٩٣٠ وعمل مع والده في « المصباح » وظهر كمؤلف قصصي متمكن فألف « فترة من الزمان » عام ١٩٠٧ واتبعها « بحديث عيسى بن هشام » .

وتعتبر رواية : « حديث عيسى بن هشام » حلقة وسيطة في القصة المصرية والعربية فلم تكن القصص بالطريقة الحديثة الأوروبية معروفة لدى العرب أو المصريين فقد كان القصاص يكتب قصصه بطريقة المقامات كمقامات الهمذاني والحريري بينما القصاص الشعبي يكتبها أو يقولها بطريقة الرواة كسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة فهذه كلها رغم أنها قصص وروايات الا أنها تخرج من موضوع لتدخل في آخر وتعتمد على التشويق الذي يقدمه « الأدباتي » الراوي الذي يلقيها مسلسلة بالمقاهي معتمدا على ربابته ، وكانت المقاهي في ذلك العهد تتنافس في استقدام الرواة ، ويذهب المصريون اليها لشرب النارجيلة « الشيشة » والشاي والاستماع فهي نوع من مسرح المقهى .

أما القضية والرواية التي تعتمد على موضوع وتحليل وشخصيات ولها بداية وذروة ونهاية فهذه لم تكن قد عرفت بعد .

ثم ظهرت عيسى بن هشام مزيج من الأدب الحديث الذي يروي قصة لها حبكة ويضمها موضوع وفي نفس الوقت كتبت بتلك الطريقة التي كتبت بها المقامات في بعض أجزائها حيث نجد الكلام المسجوع وأنواع الجناس

ومراعاة الفـــــواصل الى آخر المحسنات التي تعطي للكلام رنينا أكثر مما تعطي أفكارا ، ولكن الكاتب في حيرته بين المقامة والرواية قدم لنا الرواية المصرية الأولى حقا .

وأهم ما في الرواية هو ما بها من مفارقات تعرفنا على نوع الحياة في هذا العهد ، عهد جويدان ، والعهود السابقة كأيام جدها محمد علي .

والرواية تقص قصة عيسى بن هشام « الراوى » الذى كان يسير بين القبور ففوجيء بقبر يفتح ويخرج منه رجل طويل القامة مهيب يسأله بعظمة عن اسمه وعمله . فاخبره ان اسمه عيسى وانه يعمل كاتبا وهنا نجد مفارقة في أن الرجل لا يعرف شيئا عن مهنة الكاتب الا أنه الشخص الذى يؤجر لكتابة الرسائل أو العرضحالجى كما نسميه اليوم ، أما الكاتب كصحفي ومؤلف فهذه مهنة لم يسمع بها المرحوم .

ويطلب الرجل من عيسى ان يحضر له ملابس وحصانا وكان الخارج من القبر هو احمد باشا المنيكلى الذى تعجب لأن عيسى لا يعرفه ويجهل بيته ويحاول عيسى ان يفهم الرجل أن البيوت في مصر أصبحت لها عناوين فلم تعد تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأرقامها .

ويستغرب الباشا لأنه يعرف ان الأرقام هى لتمييز عساكر النظام واوامر الحكام وليست البيوت .

واعطاه عيسى ردائه وهو يتعجب ويقول فى نفسه :

ــ كنت اظن ان سلب المارة لا تكون الا من قطاع الطرق فاذا هو أيضا من سكان القبور .

وقبل الباشا الرداء متضررا قائلا انه كان احيانا يلبس

مثل هذا الرداء وهو يخـــرج متنكرا مع ابراهيم باشا لاستطلاع أحوال الرعية ويسأل كيف سيدخلون المدينة وهم فى الليل وهو لا يعرف كلمة سر الليل التى لا تفتح ابواب المدينة ليلا الا بذكرها .

وعيسى لم يسمع بمثل هذا النظام .

فيخبره الباشا بأنها كلمة تصدر كل ليلة من القلعة الى الضباط فى القرة قولات (أقسام الشرطة) وحراس الأبواب ، وتتغير كل ليلة فهى يوما « عدس » وليلة « خضار » وأخرى « حمام أو فراخ » .

ويفهمه عيسى انه لا داعى لهذه الكلمة أو غيرها وان ابواب المدينة أصبحت مفتوحة لا تغلق .

وسار الاثنان الى القلعة .. وسار خلفهمـــا مكارى بحماره ، والمكارى هو رجل يؤجر الحمير للركوب ، فقد كانت تلك وسيلة الانتقال داخل المدينة فى ذلك الوقت مثلها مثل العربات الكوبيل (ذات العجلتين) أو الفيتون (ذات الأربع عجلات) التى يستعملها الأغنياء ، وكانت للحمير مواقف تقف بها ، واحواض داخل المدينة تشرب منها ، وهى أحواض انشأها الفرنسيون أيام نابليون لسقى خيولهم فأصبحت الأماكن التى بها الأحواض تسمى الفرنساوى .

المهم ان المكارى سار بحماره خلفهمـا ثم أمسك بذيل الباشا وهو يقول له :

ـ اركب يا افندى ، لقد عطلتنى وانا اسير وراءك من الصباح .

وصدم الباشا فلا يليق بمركزه ان يركب الحمار ، وصمم المكارى على ان الباشا أشار اليه وهو يكلم صاحبه

وانه سار خلفه حسب الاشارة ليركب معه ، فان لم يركب فعليه ان يدفع أجرته .

وقامت مشادة بين الباشا والمكارى ، وأمر الباشا عيسى ان يضرب المكارى ، كما لو كان عيسى أحد عساكره فأفهمه عيسى ان الضرب جنحة والقتل جناية ، ولكن الباشا لم يستمع لكلام صاحبه وامسك بالمكارى وضربه .. وصرخ الرجل منـــاديا البوليس ويسأل الباشا عن معنى كلمة بوليس ، فيفهمه عيسى ان معناها « القواس » (أى حامل القوس) .

واقتيد الرجل الى قسم البوليس حيث اصطدم باحد العساكر ووقع فوقه فاعتبر الأمر اعتداء على ممثل السلطة وحرر للباشا محضران وأخذت بصماته ، ثم طلب منه احضار ضامن يضمنه فخرج عيسى وأحضر شيخ الحارة ليضمن الباشا معه .

وحضر مفتش للقسم فأراد الباشا أن يشتكى له ، فما كان من المفتش الا أن أمر بابقاء الرجل للصباح حتى يكشف على سوابقه ويرسل للنيابة .

وتركه عيسى وعاد فى الصباح ليجده قد ارسل لقلم تحقيق الشخصية لفحص سوابقه ، ثم الى النيابة ، ولم يستطع الباشا أن يفهم ان النيابة تنوب عن الأمة كلها فى تطبيق القانون فمعلوماته فى عهده انه لابد ان يكون هناك أمير عظيم يولى نوابا فى ولاية الدماءوالاعراض والأموال ، ويحاول عيسى أن يفهمه ان وكيل النيابة هو متخصص حصل على شهادة تؤهله للعمل فى هذه المهنة خلاف عهد الباشا الذى كانت الوظائف فيه تعطى لأبناء الأغنياء والتابعين .

وقدمت القضية الى المحاكمة .

ويدور حوار عن المحاكم تذكر فيه المحاكم المختلطةوهذه المحاكم كانت نوعا عجيبا فى ذلك العهد . فان كل قضية يكون فيها خصم او طرف من الاطراف غير مصرى تنظر أمام تلك المحاكم أو أمام المحاكم القنصلية التى كانت مختصة بالجنح التى تقع من رعاياها ضد المصريين او ضد بعضهم البعض .

والحق ان هذه المحاكم كانت سبة فى جبين مصر لم نتخلص منها الا فى عام ١٩٤٨ بعد الغاء الامتيازات الأجنبية واصبح القضاء الوطنى هو المختص بكل المنازعات .

ونعود للباشا فان المحكمة بعد نظر الدعوى وسماع الدفاع حكمت على الرجل بالحبس سنة ونصفا والغرامة والمصاريف ، وقرر المحامى الاستئناف .

وسمع صوت بائع الجرائد ينادى :

« المؤيد والمقطم والأهرام ومصر » الأربعة بقرش ..

ودخل الباشا فى حديث مع عيسى عن الجرائد ، فأخذ عيسى يشرحها له لانها لم تكن موجودة فى عهده ، ويشرح الباشا ان فى عهده كانت هناك غازيته واحدة بالتركية اسمها « روزنامة وقائع » واخرى بالعربية اسمها « الوقائع المصرية » تدور فيها أسماء المدائح والتهانى وأخبار انتقال الركب العالى .

وفى محكمة الاستئناف كانت جريدة « مصباح الشرق » قد نشرت تحقيقا عن المكارية الذين يعترضون الناس ويلحون عليهم بسوء أدب وقلة تربية واستعان المحامى بهذا التحقيق وصدر الحكم بالبراءة .

وتبدأ قضية أخرى وهى مطالبة المحامى بأتعابه ،

والباشا لا يملك شيئا رغم انه كانت لديه كنوز وكنوز فى زمانه وأيامه .

وثارت مشكلة ان الباشا لا يجد أهله ولا ماله ، ثم تذكر ان له وقفا ، وبحث بمعاونة عيسى عن الوقف حتى عثرا على دكان عطار بها شيخ عجوز نظر اليه الباشا وناداه فهب الرجل واقفا .. وسأله الباشا :

ـ الست أنت احمد اغا الركبدار ، الا تعرفنى .

وعرفه الرجل بعد أن كشف له الباشا عن علامة من أثر اللعب بالجريد فى قدمه . وسأله الباشا عن ذريته فقال الرجل انه لم يبق منهـــــا غير حفيد ترك الثروة لافرنجى (أجنبى) يديرها وانه يعيش فى الاوتيل اى اللوكاندة ، ولم يفهم الباشا فافهمه عيسى انه بيت ينزل به الغرباء نظير اجر للمبيت كالخان فى ايام الباشا .

وظن الباشا أن الولد صابه الفقر ، ولكن عيسى اخبره ان نزلاء الفنادق الآن هم الأغنياء ، وأخذ يشرح له نظام الفنادق والمضيفين والطهاة .

وقادهم البيطار (المطار) الى الفندق حيث كان الحفيد مع خلانه وأصدقائه فضحكوا منهم وطردوهم .

وسأل الباشا البيطار عن اصدقائه القدامى وهل بقى منهم أحد فأجابه فلان وفلان وفلان .. وذهب بهما الى دار احد هؤلاء الأمراء الذى اعتزل وتفرغ للتعبد والحياة الروحية .

ودخلوا عليه ومعه جمـــاعة من اصحابه يتحدثون فاستمعوا اليهم يذكرون أيام محمد على ولاظ اوغلى تابعه الذى دبر مذبحة المماليك ، وعن صيحة محمد على المزعجة التى لم تكن تفارقه فكان يزأر فى مجـلسه كزئير الأسد

حتى انه صاح تلك الصيحة يوما وهو جالس امام رسام أجنبى كان يرسم له صورته فسقط الرسام ميتا .

وان محمد على كان كيسا فى ادارته للأمور حتى انه علم يوما ان احد المديرين يغالى فى جمع الأموال فنادى المدير وامسك براسه واخذ ينزع شعرة من راسه وأخرى من قفاه وثالثة من حاجبه .. الخ .. ولم يكن المدير يتألم الا الما خفيفا ، ثم فجأة نزع محمد على من الرجل خصلة شعر دفعة واحدة فنبع منها الدم وصرخ المدير ، فقال له محمد على :

ـ هكذا تكون معاملة الرعية فى جباية الأموال ، تأخذ درهما من هنا ، وآخر من ههنا فيخف الوقع على الاهالى ولا يحسوا بالألم الشديد .

ومرة عين محمد على حسن باشا كويلى حاكما على احدى الولايات التى فتحها فخاف الرجل واعتذر لجهله اللغة العربية ، فقال له محمد على :

ـ يكفى أن تعرف كلمتين اثنتين هما : « فلوس » و « كرباج » .

وتنبه الرجال الى عيسى وصحبه فسألوهم ماذا يريدون فأفهموهم بخبرهم ، ودار حديث خرافة عن الذين عادوا للحياة ، ولم يطق الباشا الحديث فهب يعارضهم وينصحهم ! .

ثم أخذوا يسألونه اسئلة سخيفة عن ظلام القبر وعن اللكين وهل حاسباه باللغة العربية أم التركية أم السريانية ، لأن هناك خلافا بين العلماء فى هذا الشأن .

والمهم ان الباشا وعيسى خرجوا من عندهم لان الباشا لم يعجبه حوارهم وخرج خلفهم تاجر كان قد دخل أثناء

الحديث يبيعهم قطيفة ، وأعطى الباشا كبس نترد لأنه عرفه .

وذهبوا الى محام شرعي ليرفع قضية الباشا بسترد بها الوقف ، وطلب المحامي توكيلا ، وهو شيء لم يسمع به الباشا فقال له انه شهادة شاهدين أمام المحكمة بأن فلان ابن فلان قد وكل فلان ابن فلان في المرافعات والمدافعات .. الخ .. ثم بعد ذلك تستحضر حجة الوقف أو صورة منها من السجل ، ويعقب ذلك القضية .

ويصف الكاتب السجلات وكيف تاها فيهـا للحصول على صورة الوقفية .

ثم ذهبوا الى المحكمة ويصف عيسى يوما بها .

ثم يصف بائعا للكتب لديه من الكتب القديمة ما لا يقدر بمال مثل : « حل الرموز لفتح الكنوز » و « أصول المراسم لفك الطلاسم » و « حسن ارشاد الناس في استخراج الذهب والنحاس » و « القول المأثور في تأثير البخـــور » و « قلائد اللؤلؤ والمرجان في استحضار الجان » و « خير المواقيت لرؤية العفاريت » .

وذهبوا لاعلان الحفيـــد بالدعوى في القصر ، وكان يتهرب من الدائنين المختلفين من الصيرفي الى الخيــاط والاسكافي والحلاق .

وطالت القضية ومرض الباشا ودار به عيسى على الأطباء الذين الزمه بعضهم بشراء الدواء من صيدليات بعينها خوف الغش .. وبعد مدة عثر على طبيب عرف أن داؤه هو قلق نفسي وان عليه تغيير الجو فسافرا الى الاسكندرية .

وجاء ذكر لوباء الطاعون فقص الباشا على عيسى كيف

حصد هذا المرض الناس أيام محمد على سنة ١٨٨٤ فحكى له عيسى عن تقدم الطب وعن الميكروبات والميكروسكوب الذى ترى به هذه الدقائق المتناهية الصغر .

واعتزل عيسى مع الباشا الذى بلى به يتذاكران ماضى الباشا وما وصلت اليه الحال الحاضرة من ترف فى الفنون وكثرة المطابع والكتب ، وانتشار وسائل الزينة وانتشار العلوم ووسائل الانتقال من مركبات خيول او بخار كالقطارات ، ثم تكالب العلماء على اقتناء المال والأراضى والاشتغال بالتجارة ، وعن التجار الذين لجهلهم وخمولهم استطاع الأجانب أن يستحوذوا بدلهم بتجارة البلد .

ثم اخذ عيسى الرجل الى أحد الافراح حيث صرف الداعى المبالغ الضخمة على الحفل والموائد ، وعلى الطرب والغناء ، وينتقد الباشا الغناء والموسيقى ، وتدور مناقشة عن فائدة الموسيقى فى الشفاء من الأمراض ، وعن آلات الرسم والتصوير دون رسام .

ثم مقابلتهما لأحد العمد من الخلعاء فى حديقة الأزبكية وذهابه الى البار والى البورصة للمضاربة والى مكان للعب ثم الى المطعم الذى لم يفهم الباشا شيئا من الأطعمة التى به ، ثم ذهاب العمدة الى المرقص .. وانتهى الأمر بالعمدة الى رهن أرضه .

وانتهى الكتاب بنقاش عن فائدة المدنية الغربية من عدمه .. ولكن الكاتب ترك القضية مفتوحة ولم ينه القصة نهاية مغلقة تدل على انتصار اى العصرين ، الماضى أم الحاضر ...

إبراهيم المويلحي وابنه محمد
عـام الكف وعـام الكفء

من طرائف ذلك العهـــــد ما حدث بين الصحيفتين « المؤيد » و « مصباح الشرق » من خصام وسجال دام سنينا ، وقــد حدث ان المويلحي الابن مؤلف عيسى بن هشام قد تشاجر يوما مع شاب من الأثرياء المتحذلقين في مكان عام ، وما كان من الشاب واسمه «محمد نشأت» الا ان ضرب محمد المويلحي بالكف .

وكانت لطمة طيرتها الأخبار والأنباء وزادت فيهـــــا ونشر علي يوسف الخبر في جريدته « المؤيد » بشماتة وسخرية واطلق على السنة التي وقع فيها الحادث وهي عام ١٩٠٢ اسم « عام الكف » .

وفي ذلك الوقت كان الشاعر الكبير اسماعيل صبري الذي ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٢٢ واشتهر بتورياته المعروفة التي أذكر منها بيته :

طرقت البــاب حتى كل متنى
فلمــــــا كل متنى كلمتنى

والتورية هنا فى انه طرق الباب حتى كل اى تعب متنه أي ظهره فلما تعب ظهره كلمته .

والمهم ان هذا الشاعر كان من انصار الشيخ على يوسف فالف قصيدة منها :

اعرنى يابن ابراهيم صدغا
أخوض به غمار الصافعينا

على ان المويلحى الأب لم يترك الفرصة تفوت فانتهز فرصة قضية طلاق على يوسف من صفية عام ١٩٠٤ وسمى العام الذى رفعت فيه القضية « عام الكفاء » سخرية من على يوسف الذى ثبت بحكم القضاء انه ليس كفؤا لمصاهرة العائلات الكبيرة .

رئيس المجلس التشريعى يشترى ثلاث جاريات :

كان على باشا شريف رئيسا للمجلس التشريعى فى أول عهد الخديوى عباس .

وفى أغسطس عام ١٨٩٤ حضر الى مصر عن طريق الواحات خمسة تجار رقيق وأقاموا بالأهرام ومعهم ست جاريات سودانيات بضاعة حاضرة جاهزة للبيع .

ورغم ان الرق قد الغى من كل بلاد العالم بموجب اتفاقيتين دوليتين هما اتفاقية برلين سنة ١٨٥٥ واتفاقية بروكسل عام ١٨٩٠ ، كما ان الخديوى اسماعيل قد أصدر قانونا بالغاء الرقيق فى مصر عام ١٨٦٦ ، الا ان الأسر المصرية فى ذلك الحين بما فيهم أسرة الخديوى كانوا يحتفظون ببعض الجوارى ويشترونهن ويستخدمونهن فى قصورهم ، ولهذا لم يكن غريبا أن يحضر تاجر الرقيق ببضاعته ويعرضها للبيع دون خوف كبير .

والمهم ان التجار قد اتصلوا بعلى باشا شريف رئيس

المجلس وعرضوا عليه بضاعتهم فانتقى ثلاث جاريات منهن اشتراهن وبيعت الجاريات الثلاث الأخريات الى الدكتور عبد الحميد بك شافعى الذى احتفظ بواحدة وارسل واحدة للشواربى باشا صاحب الشارع المعروف باسمه فى القاهرة حاليا وارسل واحدة اخرى الى منزل حسين باشا واصف مدير مديرية أسيوط .

وفى ذلك الوقت كانت هناك مصلحة اسمها مصلحة الرقيق أنشئت لرعاية شئونهن وبحث احوالهن وما استتبع تطبيق قانون الغاء الرقيق من مشاكل واجراءات .

ونمى الى علم ضابط هذه المصلحة بمنطقة الأهرام اليوزباشي محمد ماهر ما حدث فقام بضبط القافلة ، وقبض على اربعة من النخاسين (تجار الرقيق) وهرب الخامس .

وتوجه الضابط الى منزل الدكتور الشافعى الذى اعترف بشراء جارية وارسال الاثنتين الأخريتين الى منزلى الشواربى باشا وواصف باشا .

وكان رئيس المصلحة ضابطا انجليزيا اسمه شيفر بك فلما رفع اليه تقرير بما حدث وبأن الضابط المصرى لم يستطع سؤال شريف باشا لحصانته البرلمانية ارسل شيفر يستدعى الباشا .

ولما وصل الباشا لم يسمح له الحاجب بالدخول بل أوقفه بالباب حتى يستدعيه المدير كأى متهم ، وطلبه المدير بعد فترة طويلة .

ثم وجه له شيفر تهمة الاشتراك فى الاتجار بالرقيق ، واحتج الباشا بمركزه وطلب السماح له بالاتصال بالخديوى أو الابراق له فرفض المدير .

وكانت الامتيازات الأجنبية موجودة وقتها فتحامى الباشا بها قائلا انه رعية ايطالية وليس للمدير أن يسأله فى غير حضور القنصل الايطالى ، وهنا أرسله شيفر مخفورا الى الادارة الانجليزية ليتصرف رؤساؤه .

وهناك تركوه فترة أخرى قبل ان يسمحوا له بارسال برقية استنجاد الى الخديوى .

واجتمع مجلس الوزراء المصرى برئاســـة نوبار باشا لبحث الموضوع ثم امر بتشكيل لجنة لتقرير هل ينطبق قانون الغاء الرق على من يشترى رقيقا ، أم ان العقوبة مقصــــورة على الاتجار فى الرقيـــق ولا تمتد الى عملية الشراء .

وشكلت محكمة عسكرية فى ٤ سبتمبر عام ١٨٩٤ قدم اليها النخاسون الأربعة والباشوات المشترين ما عدا شريف باشا حيث أرسلوا الى القنصلية الايطالية يسألونها هل هو ايطالى حقا كما يدعى أم لا ؟

واستحضرت الجوارى وسئلن فى المحكمة ، ويبدو أن محامى الشواربى أو أسرته قد أغروا وأثروا على الجارية زنوبة التى اشتراها لأنها حين طلب منها تعيين الباشا الذى بيعت له ادعت انها لا تراه بقاعة الجلسة ، فلما سئلت عن أوصافه اختلط عليها الأمر فمرة قالت ان له لحية فلما سئلت ان كان بلحيته شيب ترددت ثم قررت انه لم تكن له لحية .

واستمرت المحاكمة أسبوعا ، وسمعت محـــاكمات الدفاع الذى أخذ يثبت ان الباشوات ذوى سمعة حسنة وان ما حدث لا يعتبر بيعا ولا تنطبق عليه شروط البيع وان القانون يقصر العقاب على الاتجار فى الرقيق دون الشراء ، وتعجب الدفاع لأن الجاريات قد أصبحن حرات

تسمع شهادتهن بينما الباشوات اصبحوا متهمين الى غير هذا الكلام الانشائى .

وفى النهاية صدر الحكم فى ١٣ سبتمبر بالحبس مع الشغل على الدكتور عبد الحميد الشافعى وببراءة الجاريتين بينما ثبت على الدكتور الشافعى تهمة شراء ودفع ثمن الجاريات الثلاث وارسال اثنتين الى منزلى المتهمين الآخرين .

وبقى المتهم الرابع شريف باشا ، ويظهر ان الحكومة الايطالية استنكرت التهمة لذا بعثت قنصليتها بالقاهرة الى السلطات المصرية تخطرها بأنه وان كان الرجل قد قيد نفسه بدفاترها كرعية ايطالية الا انه لم يدفع الاشتراكات المفروضة على الرعايا الايطاليين منذ عدة سنين ولذا يعتبر انه ليس من رعاياها ولا فى حمايتها وانه قد تنازل بفعله هذا عن حمايتها .

وموضوع الحماية هذا كان احد مساوىء نظام الامتيازات التى كان السلطان قد منحها للأجانب فى مصر ، ولما كان كل من يقيد فى دفاتر احدى القنصليات الأجنبية كرعية من رعاياها له حماية خاصة ولا يحاكم او يحقق معه الا أمام محاكم القنصلية أو المحاكم المختلطة ، فان اغنياء المصريين كانوا ينتقون دولة أوروبية يحتمون بها مقابل مبالغ يدفعونها لها ، وكانت القنصليات الأجنبية فى مصر تتخذ من هذه الامتيازات مجالا للكسب والتجارة .

المهم ان شريف باشا لما علم بذلك رفع استقالته الى الخديوى من رئاسة المجلس التشريعى بسبب مرضه واعتكف فى بيته .

وقبلت استقالته وارسل السردار طبيبين انجليزيين للكشف على الباشا فقررا انه فعلا مصاب بمرض فى القلب وانيميا .

وعلى اساس من هذا التقرير طلب من الباشا كتابة اعتراف وطلب العفو عنه ففعل ، واصدر الخديوى أمرا بالعفو عنه .

المسرح والغناء فى عهد جويدان :

يعتبر جورج أبيض اهم مسرحى انتجته تلك الفترة ، فهذا الممثل الذى ولد فى بيروت عام ١٨٨٠ وحضر الى مصر للعمل بمسارحها ارضاء لهوايته واعجب به الخديوى عباس فأوفده الى باريس فى بعثة لدراسة التمثيل على نفقته عام ١٩٠٤ وعاد الى مصر بعد ست سنوات ليقدم رواياته باللغة الفرنسية كان من أكبر اعمدة التراجيديا .

وقد قدم رواية الملك أوديب لسوفوكليس وأوديب هذا هو الملك الذى تزوج أمه دون أن يعرف .

ومثل عطيل شكسبير مأساة الفيور الذى قتل زوجته لمجرد شك .

على ان أشهر رواياته كانت لويس الحادى عشر التى ألفها لافينى . ولويس هذا تآمر وهو ولى العهد على قتل والده واعتلى عرش فرنسا عام ١٤٢٣ وعاش حياته فى مؤامرات وكان يخشى على نفسه من الأغتيال فحبس نفسه فى قلعة بليسيه لى تور حتى مات عام ١٤٨٢ .

ثم مثل جورج نفس رواياته الفرنسية بالعربية ، واشتهر جورج بأدوار التراجيديا وفشل حين مثل

كوميديات موليير التي‌ترجمها ومصرها محمد عثمان جلال كالشيخ متلوف ومدرسة النساء وغيرها .

ثم اشترك مع سلامة حجازى فى المسرح الفنـــائى وكونا فرقة .

ومن مغنين ذلك العهد كان يوسف المنيلاوى الذى ولد بالقـــاهرة عام ١٨٥٠ وتوفى عام ١٩١١ وأعجب به السـلطان عبد الحميد فقربه اليه وسجلت له عدة أسطوانات قليلة عام ١٩٠٨ منها « كل من يعشق جميل » وانت فريد الحسن . وبسبب قربه للسلطان عبد الحميد كتبت شركة اسطوانات عمر أفنـدى ، على اسطواناته « سمع الملوك » .

ومحمـد عثمان الملحن والمغنى الذى نظم له الشاعر اسماعيل صبرى اغنية :

قدك أمير الأغصـان   من غير مكابر
ورد خدك سـلطان   على الأزهار
والحب كله أشجان   يا قلب حاذر

ومحمد عثمان ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٠ وكان قد سافر مع عبده الحـــامولى الى الآستانة فسجنهما السـلطان عبد الحميد بسبب أغنية غناها الحامولى اعتبرها السلطان سياسية ومطلعها :

عشنا وشـفنا سنين   ومن عاش يشوف العجب

ومرض عثمان وعبده الحامولى بالسل وماتا به .

ولا استطيع أن اعدد مغنين وفنانى ذلك العهد فقـد كانوا كثيرين حيث ازدهر فيه الغنـــاء بأنواعه الفردى والمسرحى والأوبرالى وتوارثناعنه عدة أغان لا زالت على الالسنة منها .

يا قمرة يا قمـــرة يا قمورة
يا محنى ديل المصـــفورة
ويا بنـات اســـكندرية
مشيكم على البحـــر غيه
تلبســـوا الكشمير بتلى
والشــفايف ســـكرية

كما ازدهر عالم العوالم والمقصود بهن قــائدات فرق غناء ورقص مخصصة للاستئجار في الحفـلات والافـراح كببة كشر التى توفيت عام ١٩١٧ وأشهر اغانيها « الحنة الحنة يا قطـــر الندى » وأمينة شخلع التى توفيت عام ١٩٢٤ واشهر اغانيهـــا « قــولوا لمين الشمس ماتحماش » .

ولا يمكن ان ننسى منيرة المهدية ومسرحها .

وأهم حدث فى حياة منيرة هو انه عندما خلع الانجليز الخديوى عباس زوج جويدان عن العرش ومنعـــوا مجلس الوزراء المصرى من الاجتماع لبحث الموقف فلم يجد رئيس الوزراء حسين باشا رشدى غير ان يجمع مجلسه فى بيت منيرة المهدية .

وكان المسرح المصرى مزدهرا فى عهد عباس والفرق كثيرة وقد تجمعت كلها فى حى الأزبكية وكانت المسارح قليلة وحكومية وهى مسرح الكوميدى ومسرح الأزبكية ومسرح قصر النيل والفرق مضطرة للعمل بالمقاهى .

وفى عام ١٨٩٢ بنت فرقة سليمـــان القرداحى اول مسرح اهلى خاص بهـــا وفى سنة ١٨٩٦ أقيم مسرح لفرقة ابو خليل القبانى بالعتبة وبنى بالخشب واحترق سنة ١٩٠٠ ثم بنيت دار التمثيل العربى فى حى وش البركة .

وفى عام ١٩١٠ بنى الخديوى عباس شارعا فى ارض كان يملكها وبه صالات ومسارح وكازينوهات ذلك هو شارع عماد الدين فانتقلت الفرق للاشتغال بمسارحه كمسرح عباس ومسرح بريتانيا وكازينو دى بارى ... الخ .

المنفلوطى والصاعقة :

ومن أدباء العصر المنفلوطى الذى ولد سنة ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٢٤ ببلدة منفلوط وتعلم بالأزهر وعمل فى تحرير جريدة « المؤيد » وله أسلوب ادبى صحفى تحرر فيه بعض الشىء من المحسنات البلاغية وجمع مقالاته فى كتاب « النظرات » و « العبرات » . وقد كتب بأسلوبه روايات عدة ترجمت له من الفرنسية فاعاد صياغتها ولقت نجاحا كبيرا فى وقتها كرواية « الشاعر » و « فى سبيل التاج » و « مجدولين » .

على ان أهم حادث فى حياته هو القصيدة التى الفها ضد الخديوى عباس وسجن بسببها .

وفى سنة ١٨٩٧ عاد الخديوى من العاصمة الصيفية وهى الاسكندرية الى العاصمة الشتوية وهى القاهرة وفى ذلك الوقت كانت الحكومة المصرية بوزرائها ومكاتبهم وكبار موظفيهم تنتقل الى الاسكندرية فترة الصيف من اشهر مايو الى آخر سبتمبر ثم تعود الى القاهرة من أول اكتوبر كل عام .

والمهم انه كانت هناك مجلة ادبية اسمها « الصاعقة » يصدرها أسبوعيا صحفى واديب اسمه « احمد فؤاد » .

وظهر عدد المجلة وفي صفحته الأولى قصيدة عنوانها :
« تهنئة مرفوعة الى عباس حلمى لمناسبة عودته القاهرة » .
وكان مطلع القصيدة :

قدوم ولكن لا اقول سعيد
وملك وان طال الملك سيبيد

واقتطف منها :

تذكرنا رؤياك أيام انزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء سديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا اصبح عباس وهو عميد
كأنى بقصر الملك أصبح بائدا
من الظلم والظلم المبنى مبيد
أعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الأرض حين تسود

واهتزت مصر للقصيدة وقامت قيامة القصر واصدر ناظر الحقانية أمرا الى النيابة باعتقال صاحب الجريدة والتحقيق معه .

واعتقل أحمد فؤاد فقرر أول الأمر انه ناظم القصيدة وانه سيطبعها مرة ومرات لتنتشر بين الناس وان كان يأسف على شيء فهو أسفه على ان عدد المجلة تأخر في الطبع ولم يظهر في نفس اليوم الذى عاد فيه الخديوى الى القاهرة .

ثم عاد احمد فؤاد وغير أقواله فقرر ان على يوسف صاحب المؤيد أعطاه نسخة القصيدة وطلب منه نشرها ودفع له مالا مقابل ذلك على أن يقول اذا سئل عنها أن صاحب المقطم والشيخ البكرى هما اللذان اعطياها له .

وامر وكيل النيابة السيد / يوسف سليمان ازاء هذا التضارب فى أقوال الرجل باستدعاء صاحب المطبعة التى طبع فيها العدد .

وقال صاحب المطبعة ان احمد فؤاد أحضر القصيدة وكان يرافقه السيد / مصطفى لطفى المنفلوطى .

وقبض على المنفلوطى الذى اعترف بانه ناظم القصيدة ولكنه لم يكن ينوى نشرها .

وذاعت القصيدة بمصر وتدوولت لدرجة ان طلبة المدارس أخذوا ينسخونها باليد ويبيعونها لبعضهم وغيرهم .

وكان هناك صحفى اسمه سليم سركيس يصدر مجلة اسمها « المشير » كلفته سلطات القصر بأن يعثر على شاعر يقلب القصيدة الى مدح فى الخديوى حتى يقضى على الضجة التى اثيرت حولها .

وكان الشاعر المطلوب هو الشيخ عثمان الموصلى والطريقة التى اتبعها لقلب القصيدة هو ان شطر القصيدة فأخذ كل شطر من أبياتها والف من عنده شطرا ثانيا له على نفس الوزن فى مديح الخديوى بقلب المعنى .

ونشرتها مجلة « المشير » فأصبحت :

قدوم ولا اقول سعيد
على فاجر هجو الملوك يريد

لاضرابه بيت من اللـــــؤم عـــامر
وملك وان طـــال المـــدى سيبيد
رمتنا بكم مقـــدونيا فأصـــابنا
رخاء عن الجـدب المبيـد بعيـــد

وهكذا .. وطبعا هناك فرق كبير فى البلاغة .

وقدم الثلاثة للمحاكمة ، صاحب المطبعة واحمد فؤاد صاحب المجلة ومصطفى لطفى المنفلوطى الشاعر .

ويظهر ان احمد فؤاد كان يعلم انه سيحكم عليه مهما دافع عن نفسه فانتهزها فرصة للنيل من الأسرة المالكة بدفاعه الشهير الذى قال فيه :

« ان الرعية لم تسر حقا بقدوم الخديوى ، وأن محبة الرعية لملكها أمر اختيارى ، وما من ملك الا وله من لا يسر بقدومه والملك لا يستطيع ارغام رعيته على محبته لأن الملك يملك أجسام الناس ولا يملك قلوبهم .

وانه ليس أول من جاهر وأعلن للناس مظالم الخديوى فان احدا لا ينسى قصة مدفع سعيد التى نشرتها صحف مصر فى وقتها .

فقد استورد الجيش مدفعا جديدا من فرنسا وطلب سعيد تجربة المدفع فى أحد الميادين العامة ، ونقل المدفع الى أحد الميادين حيث أمر باطلاقه فاقترب منه أحـد رجال الحاشية وقال :

ـ هل يأمر افدينا بأن نتمهل قليلا حتى يمر الناس .

فكان رد الخديوى سعيد :

ـ ليس عندى وقت ، أطلق النار فنحن لم نستلم الناس بالعدد .

ثم ذكر الرجل وقائع اخرى نشرت عن الخــــديوى

اسماعيل منها انه اراد يوما ان يجمع مبلغا من المال فصنع شارات من الجوخ وزعها على أهالى طنطا مقابل خمسمائة جنيه للشارة .

ومنها ان رجال اسماعيل حاصروا مرة بلدة بالوجه القبلى هرب اليها احد خصوم اسماعيل فامر بضربهـــا بالمدافع .

ومنها ان الخديوى اسماعيل حين غضب على وزير ماليته اسماعيل صديق ســـلمه الى حرسه الخاص فكبلوه بالحديد ووضعوه فى غرارة (شوال) وأخذوه فى باخرة نيلية والقوه فى وسط النيل ..

والمهم ان الحكم صدر ببراءة صـــاحب المطبعة ، وسجن احمد فؤاد عشرين شهرا ، وتغريمه وايضـــا سجن مصطفى لطفى المنفلوطى سنة وتغريمه .

وبعد ذلك بفترة كوفىء يوسف سليمان وكيل النيابة الذى حقق القضية واستطاع ان يكشف عن الشـــاعر بأن عين رئيسا للوزراء لفترة من الزمن .

الاحتفال بهروب العريس يوم الصباحية :

اذا كانت مذكرات الأميرة جويدان قد بدات بوصف زفاف مصرى فى عهد زوجها الخديوى عباس فان حفلات الزفـــاف المصرية لم تسترع انتباه الأميرة وحدها ، بل استرعت انتباه كتاب أوروبيين قبلها وبعدها ، وقد يكون من الجميل أن نختم هذا الكتاب بهذه القصة عن زفاف مصرى استوحيتها من الكاتب الانجليزى ادوارد لين الذى سنعرف خبره فى سياق القصة .

فهل تتخيل ان العريس فى القاهرة القديمة كان يهرب من عروسه صـــــباح ليلة الدخلة فى حفـل يسمى « الهروبة » .

ولنبدأ القصة من أولها :

اصبح حنفى ناضجا وأراد الزواج ، ولكنه لم يقبل الزواج باى بنت من بنات الأسرة ممن وصفتهن له أمه ، فقد كان يعلم ان لها غرضا فى تزويجه من احدى بنات اخواتها ، بينما أبوه يفكر فى بنات اخوته .. وحتى لا يغضب أى الطرفين قرر الالتجاء الى الخاطبة ، ففى ذلك الوقت أى فى أوائل القرن التاسع عشر حوالى عام ١٨٣٥ ، لم يكن من السهل رؤية بنات الطبقة المتوسطة أو الأغنياء سافرات فى مدينة القاهرة للانتقاء للزواج .

وقدمت له الخاطبة تقريرا بأوصاف العرائس اللاتى عندها .. والخاطبة هنا هى الخالة « أم على » الدلالة التى تحضر كثيرا الى الدار لتبيع الحلى والأقمشة وغيرها الى السيدات ، وهى فى الوقت نفسه ، وبحكم دخولها الكثير من البيوت ، تعـــرف الجميع ، وترى البنات والشيخات ، ففلانة بنت فلان جميلة رشيقة صغيرة ، ولكنها لا تملك مالا ، وأهلها ليسوا أغنياء كأهل فلانة التى ليست فى جمـــال الأولى .. وهكذا .. هـــذه سمينة ، وتلك رفيعـــــة ، وثالثة طـويلة ، وأخرى قصيرة ، و ...

واستقر راى حنفى على خطبة البنت نرجس . وذهبت أم حنفى وخالته وأخته مع الخاطبة لزيارة أم نرجس ، للتعـــارف ، وفى ذهنهن أنهن اذا لم تعجبهن العروس ستكتفين بالزيارة .

ودخلت نرجس تحمل صينية القهوة تقدمها لهن ..
ووجدن ان البنت عروس مقبـــولة لا يزيد سنها عن الرابعة عشر ، فالبنت اذا زاد سنها في ذلك الزمن عن هذا الحد ، تعتبر قد فاتها قطار الزواج لان بها عيبا ما خفيا .. واستطاعت البنت ان تقدم القهـــوة دون ان تسكبها من الأقداح ، ثم انهن قمن بتقبيلها واحتضانها والتمليس على شعرها الجميل .. الخ .

واثبت فحصهن ان العروس مقبولة ، ولا عيب بها ، فصرحن لأمها بفرضهن من الزيارة .

ووافق أهل العروس على الزواج بعـــد ان وصفت الخاطبة العريس لنرجس بأنه شاب صغير السن رشيق القوام حليق الذقن ، حسن الهندام ، يحب البقاء فى البيت ، ويكسب المال الكثير .

وذهب حنفى ، وابوه ، وبعض كبار اسرته الى المقابله وكان والد نرجس قد استدعى اخوة له وأقارب ، وسأل ابو حنفى ، عن المهر المطلوب فقيل له انه الفي ريال ، ولكن أهل العريس استكثروا المبلغ ، ودارت مساومة ، انتهت بالاتفاق على الف ريال ، ثم قرأ الجميع الفاتحة كتأكيد للاتفاق ، وحدد ميعاد دفع المهر وكتب الكتاب بعد يومين .

وفي اليوم الذى حدد ، ذهب حنفى قبل الظهر ومعه الأصدقاء والأقربون الى بيت نرجس ، الذى اجتمع فيه عدد من أهلها .. واستقبلهم ابوها .. ولم يكن هذا الحفل الكبير فقد اقتصر على الاقربين .

وجلس حنفى امام ابو نرجس باعتـــــاره وكيلا للعروسة ، على الأرض فى مواجهة بعضهما وامام الفقيه

المأذون له بالتزويج من الوالى ، وأمسك كل منهما اليد اليمنى للآخر بحيث يكون الابهامان مرفوعين متلاصقين.. ووضع المأذون فوق يديهما منديلا ، ثم أخذ يعلن كل من العريس وابو العروسة ما يقـولاه ، وأشار الى وكيل العروسة ليقول خلفه :

– زوجتك ابنتى نرجس البكر .. على صداق قدره .. ثم لحنفى :

– وأنا قبلت زواجها لنفسي وضمها لكتفى ، وأتعهد بحمايتها ، وليشهد الحاضرون على ما أقول .

وبعد انتهاء المراسم قرأ الحاضرون الفاتحة ، ووزع الشراب المحلى بالسكر على الحاضرين ، ووزعت مناديل مطرزة على أهل العروس ، وأعطى المأذون منديل العريس وقد ربطت فيه قطعة نقود ذهبية .. وبقى الجميع لتناول الغداء .. واتفق على تحديد موعد ليلة الدخلة .

والزفاف الذى ذكرته هو عن وصف قدمه الكاتب الانجليزى ادوارد وليام لين المولود سنة ١٨٠١ والمتوفى سنة ١٨٧٦ فى كتابه « المصريون المعاصرون » (المعاصرون لعهده طبعا) وهو الكتاب الذى ترجمته السيدة فاطمة المحجوب وطبع سنة ١٩٥٧ . ولين هذا انجليزى احب مصر ، وعاش بها ، وألف عنها ، وترجم الى الانجليزية الف ليلة وليلة ، كما وضع قاموسا عربيا انجليزيا .. وقد زار لين مصر ثلاث مرات الأولى عام ١٨٢٥ والثانية من عام ١٨٣٣ الى ١٨٣٥ والثالثة من عام ١٨٤٢ الى ١٨٤٩ فاستطاع أن يعرف الكثير عن مصر والمصريين فى ذلك العهد .

وتحددت ليلة الدخلة بعد عشرة أيام من عقد القران ، وحددت ليلة الجمعة ، فقد جرت العادة أن يحـدد

موعد الافراح فى ليلة الجمعة (أى مساء الخميس) أو ليلة الاثنين (أى مساء الأحد) .

وفى الأيام العشرة بين الليلتين ، ليلة كتب الكتاب ، وليلة الدخلة ، ارسل حنفى ثلاث مرات بهدايا من الفاكهة والحلوى الى أهل العروس ، هذا طبعا خلاف ما ارسله لعروسه نرجس نفسها من هدايا اخرى كشال او قرط او خلافه من الأشياء الثمينة .

وفى هذه الأيام ، كانت اسرة نرجس مشغولة بشراء الجهاز أى أثاث ومنقولات منزل الزوجية ، وهى أشياء كثيرة مختلفة ، فمن الأرائك والصحاحير (صناديق محكمة لحفظ الملابس) والدواليب الى الحصير والسجاد وأدوات المطبخ ، ثم الثياب والمجوهرات ، وغير ذلك من الأشياء التى تحتاجها العروس ، التى انفق ابوها عليها ضعف ما دفعه حنفى من مهر .

وقد اهتم الأب بأن يكون كرسى العمامة فخما غالى الثمن ، فهذا الكرسى المصنوع من خشب الخيزران ، وله مظلة وغطاء الحرير الطبيعى السميك المحلى بخيوط من الذهب لتوضع عليه عمامة العريس عندما يعود من عمله ويخلع ملابسه .. ولكن الأب رفض ان يشترى كرسيا آخر لعمامة العروسة ، فهو ليس على هذه الدرجة من الثراء ، وطبعا لم تستطع البنت أو أمها الاعتراض أو اقناعه بضرورة شراء مثل هذا الكرسى .

ونقل الجهاز من دار والد نرجس الى بيت العريس محمولا على طابور طويل من الجمال سار حوله الأولاد والبنات وبعض الأحباء يغنون ويصخبون .

وفى بيت العريس جرت استعدادات أخرى ، فقد كلف حنفى من علق الفوانيس والنجف ، كبيرها وصغيرها ،

على جوانب البيوت الموجودة بالشارع الذى به البيت ، كما عاقت عشرات من القناديل الصغيرة بين الدور ، وجميعها تضاء بالزيت ، وزينت الخيوط والحبال التى ربطت بها الفوانيس بعدد كبير من الاعلام الحريرية الخضراء والحمراء ، اما فى البيت فان الباب قد فتح واعدت الموائد للضيوف طوال هذه الايام الثلاثة .

وكان الأصدقاء والمعارف والاهل ، يرسلون الى البيت صوانى من النحاس الأحمر أو من الخشب المشغول والمنقوش مغطاة بمناديل من الحرير مطرزة بقماش آخر ، وقد حملت الصوانى هدايا من الأرز واللبن والشموع وغيرها .

وفى هذه الايام الثلاثة أيضا لم تنقطع فرقة موسيقية عن العزف كما أحضرت عدة راقصات وعدد من المغنيين والمغنيات .

وفى نفس الفترة قامت الخاطبة أم على التى عرفت حنفى على نرجس ، وكذلك الداية المختصة بتوليد أم العروس والتى قامت على توليدها لنرجس ، ثم البلانة المختصة بعمليات الاستحمام والتزيين والتقاط الشعر الزائد من جسد العروس ، وأيضا الدادة وهى التى حملت نرجس طفلة وقامت على تربيتها ، والمرضعة التى ارضعت العروس وهى وليدة محافظة على صدر امها من الترهل .

قامت هذه الفرقة من السيدات بشبك شيلان من الكشمير والحرير المخطط فوق الكتف الأيسر عند جنوبهن .. وركبت كل واحدة حمارا وسرن فى موكب يتصدره عدة رجال يدقون الطبول .

وطاف هذا الموكب على بيت صديقات نرجس تدعوهن

لمرافقتهـــا الى الحمام .. ويسمى هـذا الركب موكب « المدهناك » .

وكان ابو نرجس رغبة منه فى التوفير ، يريد أن يقلل من عدد المدهنات ولا يستأجر لهن حميرا أو طبالين ، او يشترى شيلان ، وتكتفين بالسير على أرجلهن واطلاق الزغاريد بدل الطبول ، ولكن زوجته لم يعجبها هذا فليس عندهم ألف نرجس .

وفى ظهر يوم الأربعاء خرجت العـــروس وخاصتها وصديقاتها الى الحمام فى زفة الحمام .. وقد تقـدم الموكب رجلان يحمل كل منهما صينية مستدبرة مغطاة بغطاء من الحرير وعليها الملابس الجديدة التى ستلبسها العروس بعد الحمام ، وخلفهما السقاء .. والسقا هو رجل يحمل قربة كبيرة ، والقـــربة هى بالونة ضخمة مصنوعة من الجلد تملأ بالماء يربطها السقا على ظهره ويدور يوزع بها المياه على البيوت التى لم تكن قد دخلتها المياه فى ذلك الوقت .. واليوم هو يسير مع الموكب وقربته مملوءة ، ومعه كوب من النحاس يصب فيه الماء من فتحة القربة ويسقى المارة ممن يطلبون الشرب تبركا بالعروس .

وخلف العروس وصاحباتها سار رجلان أولهما حامل القمقم وهو يحمل قمقما من الفضة (والقمقم يشبه زجاجة رائحة كبيرة) وبه ماء الورد او ماء الزهر ، وهو ينثر الماء على المارة بين الحين والحين .. أما الرجل الثانى فحامل المبخرة ، ويحمل مبخرة أختلط فيها البخور المعد لمنع الحسد والمختلط برائحة عطرة .

وكانت قريبات العروس وصديقاتها المتزوجات لسرن

فى طليعة الموكب ، اثنتان ، اثنتان ، وهن تلبسن الحبرة الحريرية السوداء (جلباب يغطى الجسد كله) .. ثم خلفهن العذارى تلبسن الحبرة البيضاء أو تتلفحن بشال ابيض ، وخلف الجميع سارت العروس وخلفها وحولها اربعة رجال يحمل كل منهم عمود مظلة قرنفلية زاهية اللون يظللن بها العروس .

والمهم فى مظلة العروس أن يكون لونها زاهيا ملفتا للأنظار ، كالاحمر الوردى ، أو تكون مخططة بألوان زاهية كالاحمر والاصفر .. الخ . وكان كل عمود من اعمدة المظلة التى يحملها الرجال ينتهى بمنديل مطرز معقود حول قمته ، والمظلة ليس لها الا فتحة واحدة من الأمام فهى مغلقة من أعلى ومن الخلف ومن الجانبين .

وكانت نرجس تلبس رداء يخفيها تماما وقد غطيت بشال أحمر من قمة رأسها الى قدميها فلم يظهر منها الا القصبة ، وهى قرص من الذهب رصع بالماس والزمرد واللؤلؤ وضع فوق رأسها وشبك فى الشال من الخلف وتدلى منه من الأمام فروع من الماس ، وغيره من المجوهرات وقد لبست فوق رأسها طرطورا أبيض من الورق المقوى .

والقاهرة مدينة يغلب عليها الحرارة ، كما ان ملابس نرجس العروس وسيرها تحت تلك المظلة يجعل جسدها يسخن ويفرز عرقه ، لذا فقد سارت أمامها امرأة تحمل مروحة كبيرة من ريش النعام الأسود مزينة بمرآة فى الجزء الأسفل من سطحها الأمامى ، وسارت المرأة حاملة المروحة ووجهها للعروس وأخذت تمشى الى الخلف تهوى لها .. وحول نرجس وخلفها سارت اربع من صديقاتها .

ومن الضرورى عند خروج الموكب من منزل العروس

أن ينعطف الموكب ، ويسير ناحية اليمين حتى ولو كان الحمام من الناحية الآخرى ، فانهم يتشاءمون من السير جهة اليسار ، كما انه لا يهم ان يسير الموكب فى الطريق الأقصر المؤدى الى الحمام ، بل عادة يكون السير فى منعطفات وشـــــوارع كثيرة بالحى ليراه أكبر عدد من الناس .

وعادة ما يكون والد العروس قد استأجر الحمام كله فى تلك الليلة ، فيخصص لابنته وصديقاتها وأهلهـا ، وفى نهاية الموكب يسير بعض الموسيقيين والطبالين .

وتطلق النسوة الزغاريد بين الحين والحين ، وتجاملهن بعض السائرات فى الطريق أو المتفرجات امام دورهن من السيدات التى يتصـــادف وترين الموكب فيحيينه بزغرودة أو اثنتين .

وتقضى العروس وصاحباتها عدة ساعات بالحمـــــام تلهون وتغتسلن وتأكلن ، وتستمعن الى العـوالم اللاتى تغنى لهن لتسليتهن أثناء الاستحمام .. وفى النهـاية يعود الموكب الى بيت العروس نرجس ، والذى يدفع نفقات الحمام وزفة الحمام هو والد العروس .. أما فى منزلها فيكون هناك عشاء قد أعد لها ولرفيقاتها ولغيرهن من الأهل والصحاب من الرجال والســـيدات أحباب الأسرتين ، وهذا العشاء على حساب العريس حنفى .. وبعد العشاء يستمر السهر والغناء والرقص ، الذى تقوم به العوالم .

وكانت الحناء قد اعدت وعجنت فى طشت نحاسى كبير يشبه صينية كبيرة مما يوضع به الغسيل فى ايامنا هذه .. واخذت نرجس قطعة من الحناء وضعتها فى راحة

يدها .. وقامت كل من السـيدات والصاحبات بوضع قطعة من النقود الذهبية « كنقوط » فى كفها فلما امتلأ ، الصقت النقود على حافة الطشت بالحناء ، ثم أخذت قطعة أخرى ، وفتحت كفها لتجمع نقوطا جديدا .

وبعد جمع النقوط بدأت عملية تخضيب العـروس وصاحباتها بالحناء فوضعت الحناء فى كفيها وقدميهـا وربطت بقطع من القماش بقيت حتى صباح الخميس حيث أزيلت الخرق وبقى أثر الحناء ذو اللون الأحمر البرتقالى الداكن أو الفاتح حسب نوع الحناء .

وفى يوم الخميس خرجت نرجس من بيت أبيهـا الى بيت حنفى فى زفة العروس التى تشبه زفة الحمام، وان زادت عليها .. وطبعا ليست كل الأسر على نفس المستوى من الثراء لذلك فان بعضها يستغنى عن زفة الحمام ويكتفى بزفة العروس هذه .

وقد سار أمام الزفة رجلان يحملان السيوف ويتباريان، وليس على جسدهما غير السراويل ، مثلهما مثل لاعبى الشيش ، واثنان آخران من الفلاحين يرتديان الجلباب الصوفى ويتبارزان بالعصى المسـماة نبابيت فى لعبة التحطيب ، وقد اشترك فى السير امام الموكب بعض من ذوى المهارات والحيل بألعاب مختلفة لأنهم يعلمون أن أسرتى العروسين ستجزل لهم العطاء .

ولما كان السقا رجلا متخصصا فى حمل الأثقال ، فان عمله يقتضي أن يحمل قربة الماء مليئة ويدور يفرغها فى البيوت عدة مرات فى النهار ، فان بعض السقائين من ذوى العضلات القوية يقومون بعمل غريب هو حمل قربة مليئة بالرمل الممزوج بالماء لتصبح ثقيلة الوزن ،

يحملونها ساعات طويلة لا يقوى عليها سائر السقايين ، ويصـــل وزن هذه القربة الى حوالى المائة كيلـو يحملها السقاء عند غروب شمس اليوم السابق الفرح ويظل يحملها طول الليل وطوال يوم الفرح وقبل الزفة .

وقد سار سقاء من هذا النوع فى الزفة وهو لا زال يحمل قربته حتى غروب الشمس ، أى انه حمل القربة أربع وعشرين ساعة كان فيها تحت رقابة فلم يسمح له بالجلوس فى هذه الساعات الطوال أو النوم ، والطريقة الوحيدة التى سمح له فيها بالراحة كانت هى أن يقعد القرفصاء .

والسقاء يتحمل هذه المشقة لشيئين ، الأول المكافأة التى ستدفع له ، والثانى حصوله على لقب « قيم » . . والسقائون يتنافسون فى الحصول على هذا اللقب الذى يدل فى نظرهم ونظر الناس على الصحة والقوة والقدرة على التحمل ، ولعل هذا هو السبب فى أننا لا زلنا حتى اليوم نطلق على من يسير متباهيا بقوته الجسدية لقب « قيم » كنوع من السخرية ، ذلك ان عصرنا الحديث لا يحتاج الى القوة الجسدية لغير أغراض الصحة ؛ ويحتاج أكثر منها الى القوة العقلية والذهنية بعد أن أصبح كل شىء يخضع للعقل والعلم .

والمهم ان زفة العـــــــروس نرجس وصلت الى بيت عريسها حنفى ، حيث صعدت الى الدورالعلوى المخصص للحريم ، وكانت قد أعدت لهم وليمة فتناولوا الطعام ثم هنأوا وانصرفوا وبقى مع نرجس امها واختها وقليلات من القريبات كخالتها وعمتها ، وكذا بقيت البلانة فهذه هى ليلة الدخلة .

وفى هذا الوقت كان حنفى جالســـا مع أصحابه وسدعوويه بالدور الأرضى المسمى بالسلاملك والمخصص للرجال ، وبعد العصر وقبل الغروب ذهب الى الحمام وبدل ملابسه ، ثم عاد وتناول مع اصـــحابها طعـــام العشاء .

ثم خرج مع أصحابه فى « زفة العريس » الى احد المساجد القريبة ، وفى طليعة الزفة الموسيقيون بطبولهم ومزاميرهم ، وعند الذهاب للمسجد لم يكن هناك نظـام الزفة .

ولكن عند خروج حنفي وأصحابه من المسجد نظمت الزفة وسارت ببطء عائدة الى منزل العريس الذى من المفروض انه لا يبدى لهفة على الذهاب الى عروسه ، لذا بدور الموكب بطرقات المدينة غير متعجل .

وعند العـودة يسير الموسيقيون أمام الزفة يتبعهم حاملو المشـــاعل ، وخلفهم رجلان يحملان عارضة أو عمودا ممدودا أفقيا ، يحمل كل منهما طرفه على كتفيه ، وعلق به حوالى الستين قنديلا ، أو أكثر فى حلقات أربع كل حلقة فوق الأخرى ، وترسل هــذه القناديل وغيرها من المشاعل ضوءا شديدا ساطعا يشبه ضــوء الكشافات ويبهر العيون .

وخلف الأضواء والمشاعل سار حنفى فى حلقة كبيرة من أصدقائه وقد ارتدى قفطانا مخططا بخطوط حمراء وجبة حمراء ، وعلى يمينه ويساره اثنان من أصدقائه وقد لبسا ملابس تشبه ملابسه ، وحولهم باقى الأصحاب يمسك بعضهم شمعة ، وبعضهم يمسك بفرع نمر حنة

مزهر ، او فرع مزهر لنوع آخر من الأشجار ، اما حنفى وصاحباه فلم يحملوا شيئا .

وقد لاحظنا فى زفة العروس وزفة العريس ان كلا منهما يسير ومعه اثنان يلبسان مثله تماما ، وذلك لأن المصريين يخافون من العيون الحاسدة ، ويعتقدون ان هذا السير الثلاثى يكسر من حدة العين .

وبين لحظة واخرى يقف الموكب لحظة ليستمع الى غناء أحد الواقفين بالحلقة لاحدى أغنيات الزفاف .. وكما يتوقف الموكب يتوقف دق الطبول حتى لا يغطى على صوت المغنى .. وعادة كان يسير بعض الموسيقيين ايضا خلف الموكب .. وحين يصل الموكب الى دار العريس ، يدفع النقوط للموسيقيين ، ثم يترك أصدقاءه يجلسون للتدخين وشرب القهوة والشربات ويصعد الى العروس .

ولما كان بحنفى بعض الخجل فانه لم يصعد فورا ، وانتظر حتى قاده أحد أصدقائه وصعد به درجات الحريم ، ثم تركه ليدخل الى الحجرة التى بها عروسته نرجس .

وكانت نرجس واقفة ومعها البلانة ، فأعطى حنفى البلانة بعض النقود فتركت الحجرة وخرجت . ووقف أمام عروسه وحدهما وقد غطت رأسها ووجهها بشال .

وأخرج حنفى مبلغا قدمه لنرجس « ثم كشف وجهها » .. ثم مد يده ليرفع الشال ، وتمنعت قليلا ، أو تصنعت التمنع ، ولكنه أزاح الغطاء عن وجهها وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ! ثم نظر الى وجهها وقال : « ليله مباركة » .

وردت عليه بتمتمة مخنوقة : « الله يبارك فيك » . ولكن صوتها كان غير مفهوم .

وكانت المراقبات من السيدات قد شاهدن المنظر من خارج باب الحجرة فانطلقت زغاريدهن .

ونزل حنفى الى اصحابه ، وبقى معهم حوالى الساعة ، ثم عاد الى عروسه .

وفى صباح اليوم التالى أو « الصباحية » حضر الى الدار بعض اصدقاء حنفى ، فخرج حنفى معهم وهربوا الى الريف فى نزهة قضوا فيها النهار كله ، وتسمى هذه النزهة : « الهروبة » .

وقبيل الهروب نجحت محاولات الأصدقاء فى اعادة حنفى الى منزله الجديد ، لأنه من المفروض ان حنفى باعتباره عريسا جديدا لا يندفع الى البيت مظهرا ما عنده من عواطف ، كمـــــا انه لا يقبل على ســجن الزواج ومسئولياته بمحض اختياره ، ولهذا فهو قد هرب صباح زفافه .

وبعد هذه المسرحية التدللية المرحة استطاع أصحابه اجباره على العودة لعش الغرام .. وهكذا عاد حنفى عند الغروب فى زفة صغيرة ، تقدمها بعض الموسيقيين وقد حمل أصدقاؤه الورود .

وعادة ما تكون حفلة الهروب هذه على نفقة أصدقائه الذين يشتركون فى دفع نفقاتها .

وفى اليوم السابع للزفاف ، او « السبوع » استقبلت نرجس صديقاتها وقريباتها اللاتى أتين لزيارتها وتقصى أخبار زواجها وعريسها ، وقد حضرت بعضهن فى الصباح وحضرت أخريات فى المساء .. وفى المساء ايضا استقبل

حنفى بعض أصدقائه ، واحتفل بهم باقامة حفلة ذكـر ختمت بعشاء .

وكان اليوم اربعين بعد ليلة الدخلة هو اول يوم يسمح فيه للعروس بالخروج من المنزل ، فخرجت نرجس فى الصباح مع بعض صديقاتها الى الحمام ، وعدن فى العصر الى المنزل وتناولن الطعـــام وانصرفن .. أما سبب اختيار اليوم الأربعين لختام شـهر العسل فيبدو ان المصريين القدماء من الفراعنة كانوا يحددون الشهربأربعين يوما .

المهم انه بعد هذا اليوم سارت حياة نرجس وحنفى عادية ، وقد أنجبا صبيانا وبناتا ، ولم أزرهما لأنهما عاشا قبل عصرى بأكثر من قرن كامل لأنهما من سكان قاهرة القرن التاسع عشر .

وهذان العروسان وزفافهما الذى قلت انى أخـذت وصفه من كتاب سير ادوارد لين عن مصر هو وصف لزفاف عروسين من الطبقـــة المتوسطة ، اما الطبقات الغنية فهناك بعض الاختلافات التى أوردها لين .

فهناك وصف لزفـاف بنت السـيد عمر مكرم نقيب اشراف القاهرة وقت محمد على باشا والذى بايع محمد على بالولاية على مصر ، يحدثنا لين عن أشياء عجيبة لا يمكن تصديقها ولا تصديق أن أحدا يقوم بها الا بسبب من الفقر الشديد المؤلم فمثلا يقول السير لين وان قرر انه لم ير ذلك ، انما ينقل عن أصدقاء مصريين ، ان رجلا سار أمام زفة العروس وقد أحدث شقا فى بطنه واخرج أمعاءه وحملها أمامه على صينية من الفضة وسار امام الزفة حتى نهايتها ، ثم أعاد أمعاءه الى مكانها ، وظل

طريح الفراش عدة أيام حتى شفى من آثار هذا العمل الأحمق الذي يبعث على التقزز والاشمزاز ، كما ان رجلا آخر في نفس الحفل اغمد سيفا في ذراعه امام جموع المتفرجين في الزفة ، وربط الجرح على السيف دون أن يخرجه من ذراعه بعدد من المناديل تضرجت بالدماء .. وقد فعل الرجلان هذه الافعال بسبب الطمع في مكافأة سخية .

ولكن خلاف هذين المنظرين البشعين في فرح بنت لرجل مهين له مكانة خاصة وشهرة خاصة ، نجد لين يصف زفة الأغنياء من اصحاب الحرف أو غيرهم من الأعيان بأن الزفة الفاخرة كان يسير فيها احيانا عدد من العربات تحمل كل منها جماعة ينتمون الى حرفة أو تجارة واحدة ، وكل جماعة تقوم باستعراض فيؤدون صنعتهم او حرفتهم والعربة سائرة في الموكب ، وعادة ما تمثل في هذه الافراح جميع الحرف المعروفة في القاهرة ، كما ان عربة خاصة كانت تسير ، وبها جماعة يصنعون القهوة ويقدمونها لمن يطلبهـا من المتفرجين والمارة .

وكانت العروس تركب عربة أوروبية مغلقة ، أو تركب هي وبقية النساء حميرا .. وفي أسبوع الزفاف تستحضر الى الدور فرق طوافة تقـوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكاهية التافهة التي يقوم الضحك فيها على تمثيل مناظر الضرب والخيانة .

وفي بعض بيوت العرسان الاغنياء كانت تعلق ثريا أو نجفة كبيرة ضخمة امام الدار ، تبلغ من ضخامتها انها تجذب انظار الناس وتجعلهم يتجمعون حولهـا للتفرج عليها ، والحديث عن ثراء العريس والعروس وأهلها ،

ولما كان أهل الدار الذين يخافون من عيـــــون الناس الحاسدة التى قد تتسبب فى سقوط النجمة أو فى نوع آخر من الأذى للعريس او العـــروس ، فانهم يسقطون كلما رأوا تجمعا كبيرا جرة من أعلى الدار الى الحوش فتنكسر وتحدث ضجة تستلفت الأنظار الحاسدة وتبعد حسدها .

بقيت أفراح الطبقات الفقيرة ، وهذه قال لين عنها انها لا تختلف عن افراح الطبقات المتوسطة الا فى التقليل من المظاهر والنفقات ...

فهرس

رقم الايداع ٤٠٩٦ – ٨٠
الترقيم الدولى ١ – ٧٥ – ٧٠٣١ – ٩٧٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر .

سوريا : ٣٠٠ ق.س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤ ١/٢ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

